مقرر التفسير للسنة الثانية
بالمـــدارس المتوسطة



الجزء الثاني

ألفه
عبد الله خياط

منشورات
مكتبة النجاح
جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

والصلاة والسلام على رسول الله

محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد

فهذه هي الحلقة الثانية من كتاب (**التفسير الميسر**) نسقتها حسب منهج وزارة المعارف للسنة الثانية بالمدارس المتوسطة بدار التوحيد والمعاهد الإبتدائية وهي تبتدىء من أول سورة الواقعة ، وتنتهي بنهاية سورة الجن .

اعتمدت في وضعها على التفاسير المشتهرة المعتبرة ، التي تعنى بتقرير مذهب السلف ، رضوان الله عليهم .

أسأل الله تعالى

أن ينفع بها ، ويعينني على إتمام بقية السلسلة

إنه أكرم مسؤول

وصلى الله على خير خلقه ، محمد وآله وصحبه .

عبد الله خياط

تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) ».

الواقعة : إسم من أسماء القيامة ، والمعنى : إذا قامت القيامة ليس لقيامها ووقوعها كذب ولا رد ، فهي كائنة لا محالة ، وهي حين تقع تخفض أقواماً وترفع آخرين .. تخفض أعداء الله إلى الجحيم ، وترفع أولياء الرحمن إلى النعيم المقيم في الجنة ؛ فإذا وقعت الواقعة ، ترج الأرض .. أي تزلزل وتضطرب ، وتبس الجبال بساً ، أي تتفتت ، وتصير كالغبار الذي تتطاير أجزاؤه ولا يكاد يرى ، ويصبح الناس حينئذ أصنافاً وفرقاً ثلاثة :

أهل يمين ، وهم الذين يأخذون كتاب أعمالهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة.

وأهل شمال ، وهم الذين يأخذون كتاب أعمالهم بشمائلهم ، ويؤخذ بهم إلى النار .

وسابقون ، قيل : هم الذين سبقوا إلى الإسلام والاستجابة للرسول ﷺ ؛ وقيل : هم السابقون إلى الهجرة أو إلى عمل الطاعة في الدنيا .

(وقعت الواقعة) قامت القيامة . (كاذبة) نفس كاذبة تنكر وقوعها . (رجت الأرض) زلزلت وحركت . (بست الجبال) فتتت كالسويق الملتوت . (هباءً منبثاً) غباراً متفرقاً منتشراً .

وهم السابقون إلى الجنة في الآخرة أصحاب الدرجات العلا .

وكرّر سبحانه قوله في الآية التالية (ما أصحاب الميمنة) لتعظيم شأنهم وما هم فيه من النعيم . وفي قوله تعالى (ما أصحاب المشئمة) تعجب من أمرهم وما هم فيه من الشقاء .. وكذلك القول في قوله (والسابقون السابقون) يريد التنبيه على رفعة أقدارهم ومنازلهم — فهم المقربون عند الله لعلو درجاتهم في الجنة وهم جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين .

وقرّر ابن كثير رحمه الله أن الأولين هم من صدر هذه الأمة والآخرين من آخرها ، وذلك لأن صدر هذه الأمة خير من آخرها فكثر السابقون في السلف الصالح وقلوا بعد ذلك .. قال تعالى :

« وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَالسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤) » .

ثم أخبر سبحانه عن لون نعيمهم ، فذكر أنهم متكئون (على سرر موضونة) أي منسوجة بالذهب .. يقابل بعضهم بعضاً ، يقوم في خدمتهم (ولدان مخلدون) أي صغار لا يموتون ولا يهرمون ، يحملون الأكواب ، وهي الآنية لا آذان لها ولا عرى ، والأباريق وهي الآنية ذوات الآذان تمسك منها وقد ملئت الأكواب والأباريق بخمر من (معين) أي من نهر

(كنتم أزواجاً) أصنافاً . (فأصحاب الميمنة) اليمن والبركة أو ناحية اليمين . (أصحاب المشئمة) الشؤم أو ناحية الشمال . (ثلة) هم أمة من الناس كثيرة .

غزير جار لا ينضب ثم هي ليست كخمر الدنيا لأن شاربها لا يعتريه صداع ولا يذهب عقله .. قال تعالى :

« عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) » .

ثم ذكر سبحانه ما يطوف به عليهم هؤلاء الخدم من ألوان الفاكهة ، ومن لحوم الطير وما يختارون منها وما تميل نفوسهم إليه وما يشتهونه ، ويتمتعون بنساء بيض حسان متسعات العيون واضحات الجمال كأنهن اللؤلؤ المصون في الصدف لم تمسه الأيدي – وكل هذا النعيم تفضل به الله عليهم جزاء ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة في الدنيا .. قال تعالى :

« وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) » .

ومن نعيمهم أيضاً أنهم لا يسمعون في الجنة ما يستهجن من الكلام ولا ما يأثم به قائله بل يسمعون على الدوام السلام حيث يسلم بعضهم على بعض ، وتسلم عليهم الملائكة .. قال تعالى :

(سرر موضونة) منسوجة بالذهب بإحكام . (ولدان مخلدون) يبقون على هيئة الولدان في البهاء . (بأكواب) أقداح لا عرى لها . (أباريق) أوان لها عُرى وخراطيم . (كأس) خمر أو قدح فيه خمر . (من معين) خمر جارية من العيون . (لا يصدعون عنها) لا يصيبهم صداع بشربها . (لا ينزفون) لا تذهب عقولهم بها . (حور عين) نساء بيض واسعات الأعين . (اللؤلؤ المكنون) المصون في أصدافه .

« لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَـا لَغواً وَلاَ تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَـٰماً سَلَـٰماً (٢٦) ».

ثم عرضت الآيات بعد ذلك لوصف أصحاب اليمين — فذكرت أنهم ينعمون بسدر (مخضود) أي عديم الشوك و (طلح منضود) . الطلح : هو الموز عند أكثر المفسرين . والمنضود الذي ينضّد بالثمر أي تراكم عليه الحمل من أوله إلى آخره ، وقيل : هو شجر له ظل بارد طيب . و (ظل ممدود) ينعمون به أيضاً ، والممدود هو الممتد الذي لا تزيله الشمس كظل الدنيا ، بل هو دائم مستمر كظل النهار قبيل طلوع الشمس . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام إقرأوا إن شئتم « وظل ممدود » . وينعمون أيضاً بالماء المنسكب لا هو بالهادر المتدفق ولا هو بالحائر المترفق بل يصب لهم ويسكب كلما أرادوا .

وينعمون أيضاً بألوان الفاكهة الكثيرة العدد المتنوعة ، لا تنقطع عنهم أبداً . وهي أيضاً لا تمتنع ممن يريد أخذها ولا تنقطع عن من يجنيها ، وينعمون بفرش وثيرة مرتفعة تتوفر بها الراحة والطمأنينة .

وينعمون بزوجات أنشأهن الله لهم إنشاء ، أي خلقهن خلقاً جديداً ، أو أعادهن بعد أن كن في الدنيا عجائز ، أنشأهن (أبكاراً) أي عذارى لم يقربهن زوج (عُرباً) متحببات إلى أزواجهن (أتراباً) مستويات في العمر لا تزيد واحدة منهن عن الأخرى ، أي يكنّ في عنفوان الشباب . وكل هذا النعيم هو لأصحاب اليمين ، وهم جماعة من الأولين من مؤمني هذه الأمة ، وجماعة من متأخريها ؛ يؤيده قوله ﷺ عن ابن عباس : هما جميعاً من أمتي ، قال تعالى :

(لغواً) كلاماً لا خير فيه . (لا تأثيم) لا نسبة إلى الإثم أو إلى ما يوجبه.

« وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) » .

أي لا تسل عما هم فيه من النعيم والكرامة .

« فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (٤٠) » .

ثم انتقلت الآيات تقص خبر أهل الجحيم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) ذكرت الآيات أنهم في سموم ، والمراد به حر النار . وفي (حميم) وهو الماء المتناهي في الحرارة وفي (ظل من يحموم) أي ظل من دخان جهنم وهو غليظ شديد السواد ، فإذا أحرقت النار أبدانهم وأكبادهم فزعوا إلى ما يطفئون به تلهب أجوافهم ، فيسقون من الحميم فتتقطع أمعاؤهم ثم يفزعون إلى الظلال ، فإذا هم بدخان جهنم ، لا بارد المنزل ولا كريم المنظر . قال تعالى :

« وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) . »

تعجب من حالهم وما هم فيه من العذاب .

« سدر » شجر النبق . « مخضود » مقطوع شوكه . « طلح » شجر الموز أو مثله . « منضود » نضّد بالحمل من أسفله إلى أعلاه . « ظل ممدود » دائم لا ينقطع . « ماء مسكوب » مصبوب يجري في غير أخاديد . « عرباً » متحببات إلى أزواجهن . « أتراباً » مستويات في السن والحسن .

« فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِـــلٍّ مِّن يَحْمُـومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ (٤٤) » .

وسبب هذا التعذيب ما أوضحه الله تعالى بقوله : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » أي كانوا في الدنيا منغمسين في الترف ولذات أنفسهم ، لا يلتفتون إلى ما جاءتهم بــه الرسل من الدين « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » أي كانوا يقيمون على الذنب الكبير ، وهو الشرك واتخــاذ الأنداد من الأصنام والأوثان وشركاء الله في العبادة ، وكانوا ينكرون البعث ويستبعدون وقوعه ويقولون : « أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » أي هل بعد الموت ، وبعد أن تغدو الأجساد عظاماً نبعث نحن وآباؤنا ، ونحيــا حياة ثانية ..؟ وأمر الرسول ﷺ أن يرد عليهم قائلاً : « إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » أي إن الأولين من آبائكم ، والآخرين منكم سوف يجمعهم الله تعالى في الموعد الذي وقّته للحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة وبعد هــذا الجمع سوف يجــازي الله الضالين عن الهدى .. المكذبــين بالبعث ويوم الجزاء من كفار مكة ، ومن على عقيدتهم من الملحدين ، حيث يدخلهـــم النــار ويطعمهم فيها من شجر الزقوم وهي شجرة خبيثة ، يُكره أهـل النار على تناولها وملء بطونهم منها . ثم يشربون على طعام الزقوم من الحميم وهو الماء الذي اشتد غليانه ، وقد شبه سبحانه شربهم من الحميم ، وعدم ارتوائهم منه بشرب الإبل التي أصيبت بداء الهيام ، تشرب فلا يروي لها الماء غليلاً .. والهيم جمع أهيم ، وجهنم هي المـكان المختــار المعد لنزولهم إعداداً يليق بهم طعاماً وشراباً ومنزلاً كما سبق وصفه فهي نزلهم ومحل استقبالهم يوم القيامة . قال تعالى :

(سموم) ريح شديدة الحرارة . (حميم) ماء بالغ غاية الحرارة . (يحموم) دخان شديد السواد . (لا كريم) لا نافع من أذى الحر .

« إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ».

وانتقلت الآيات بعد ذلك في إثبات المعاد والبعث بعد الموت. قال الله تعالى:

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ».

أي أوجدناكم من العدم، فهلا تصدقون بالبعث ؟ إذ أن القادر على بدء الخلق هو بلا شك قادر على بعثه بعد الموت .

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ».

أي أفرأيتم هذا المَنِيّ الذي تصبونه في الأرحام هل أنتم تصورون منه بشراً مستوي الخلقة أم الله تعالى الذي يفعل ذلك ؟ ومن قدر على خلق بشر من النطفة وأوجده من العدم، قادر على إعادته إلى الحياة وبعثه بعد الموت

(مترفين) عصاة متبعين أهواء أنفسهم . (الحنث) الذنب العظيم « الشرك » . (زقوم) طعام كريه جداً في النار . (شرب الهيم) الإبل العطاش التي لا تروى . (هذا نزلهم) ما أعد لهم من الجزاء . (يوم الدين) يوم الجزاء . (أفرأيتم) أخبروني . (ما تمنون) الماء الذي تقذفونه في الأرحام .

« نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ » .

أي جعل الموت مقدراً على العباد بآجال محدودة .

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ » .

أي لسنا بعاجزين ولا مغلوبين عن إهلاككم وإبدالكم بقوم آخرين أمثالكم .

« وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) » .

أي قادر سبحانه على خلقهم ، بعد إهلاكهم ، في صور أخرى لا يعلمونها ، والمعنى أنه قادر على إهلاكهم .. وعلى بعثهم .. وعلى كل شيء ..!

ثم وجه سبحانه الأنظار إلى النشأة الأولى وأنه خلق الخلق من عدم وأوجد لهم الأسماع والأبصار والأفئدة والعقول . فهلا استدل منكرو البعث بالنشأة الأولى على البعث وتذكروا بها النشأة الأخرى ؟ قال تعالى :

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) » .

واستمر سبحانه في سرد الأدلة على البعث قائلا :

« أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) » . »

أخبروني عما تثيرون في الأرض وعن البذر الذي تلقونه فيها : هل أنتم الذين تنبتون البذر في الأرض حتى يشتد وحتى يخرج الحب من سنبلة أم الله الذي يفعل

« بمسبوقين » بمغلوبين . « ما تحرثون » البذر الذي تلقونه في الأرض . « تزرعونه » تنبتونه .

ذلك ؟ ومن قدر على إيجاد الحب في سنبلة قادر على إحيـــاء الموتى وبعثهم من قبورهم .. وقوله تعالى :

« لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) » .

أي لو شاء الله لجعل هذا الزرع يابساً قبل صلاحه لا ينتفع بـه ، ثم أخذتم تعجبون من ذلك أو تندمون على تعبكم فيه ونفقتكم عليه وتقولون :

« إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) » .

أي النفقة التي أنفقناها صارت غرماً لنا حين ضاعت علينا دون تعويض .

« بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) » .

أي حرمنا ما كنا نؤمله من نماء زرعنا والربح فيه ..

واستمر سبحانه في تعداد نعمه على العباد فذكر إنزاله الماء من السحاب حلواً سائغاً شرابه .

وتساءل هل أنتم الذين صنعتم ذلك أم الله سبحانه ولو شاء لجعله مالحـاً شديد الملوحة ، لا يستساغ شربه . فهلا شكرتم الله على هذه النعمة ؟ — ومن شكره إخلاص العبادة له والاعتراف بقدرته على البعث والمعاد . قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ

(حطاماً) هشيماً متكسراً لا ينتفع به . (تفكهون) تتعجبون من سوء حاله ومصيره .
(محرومون) ممنوعون من الرزق.

ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) » .

ثم ذكر سبحانه النار التي يشبونها ويستخرجونها من الشجر خشباً أو فحماً. وتساءل عن الخالق لهذه الشجرة ، هل هو الله سبحانه أم منكرو البعث المعاندون ؟ ثم أخبر سبحانه أنه جعل هذه النار التي في الدنيا تذكيراً لنار جهنم ومتاعاً يتمتعُ بها (المقوون) وهم المسافرون يوقدونها في الليل للدفء ، وهداية الضال وغير ذلك .. قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) » .

ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسبّح باسم ربه العظيم في ملكه وسلطانه وقدرته وتدبيره ، أي يقول سبحان ربي العظيم وينزه ربه عما لا يليق به . قال تعالى :

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) » .

وبعد أن ذكر سبحانه البراهين الواضحة على إثبات المعاد ، أقسم سبحانه بمواقع النجوم ، وهي منازلها ، ثم قال : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) . أي لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظمته ، ثم ذكر المقسم عليه وهو القرآن بقوله (إنه لقرآن كريم) أي جامع للمحامد ، فيه الهدى والنور والعلم والحكمة (في كتاب

(المزن) السحب . (جعلناه أجاجاً) ملحاً زعاقاً . (النار التي تورون) تقدحون الزناد لاستخراجها .(متاعاً للمقوين) منفعة للمسافرين أو المحتاجين إليها .

مكنون) أي مصون عند الله في اللوح المحفوظ (لا يمسه إلا المطهرون) وهم الملائكة ، وقيل المراد به المصحف الذي نتداوله ونحمله وننظر فيه فيكون معنى لا يمسه إلا المطهرون أي بني الإنسان الذين تطهروا من الأحداث المعروفة فلا يجوز للجنب ولا لمن به حدث أصغر ولا لحائض مس المصحف - وأخبره سبحانه أن القرآن منزل من رب الخلائق أجمعين ، لا كما يقول المفترون إنه سحر أو شعر أو مخلوق وليس بمنزل من عند الله . قال تعالى :

« فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٨٠) » .

بعد ذلك وجه سبحانه الخطاب للمكذبين بالقرآن قائلاً :

« أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ (٨١) » .

أي مكذبون وكافرون.

« وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) » .

أي تجعلون شكر ما يرزقكم الله به من الغيث أنكم تكذبون أن يكون من عند الله حيث كانوا ينسبون السقيا للنجوم ويقولون مطرنا بنوء كذا .

وعادت الآيات لموضوع البعث ، ذكر الله فيها دليلاً واضحاً عليه ، وهو حالة المحتضر عندما تبلغ روحه الحلقوم ؛ ويحشرج وحوله أهله يشاهدون ما نزل به ؛ ولا يستطيعون له دفعاً ؛ ويكون الله سبحانه أقرب إليه منهم

(فلا أقسم) أقسم و « لا » مزيدة . (بمواقع النجوم) مغاربها أو منازلها .(لقرآن كريم) جم المنافع أو رفيع القدر . (كتاب مكنون) مصون . (أنتم مدهنون) متهاونون به أو مكذبون . (تجعلون رزقكم) شكركم على الإنعام به .

بملائكته الذين وكّل إليهم قبض روحه فهلا كان في استطاعتهم أن يسعفوا المحتضر ويعيدوا إليه روحه إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم غير مبعوثين ومحاسبين . قال تعالى :

« فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَـٰكِنْ لا تُبْصِرُونَ (٨٥) » .

« فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) » أي مبعوثين مجزيين .

« تَرْجِعُونَهَا » أي الروح « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) » .

وبعد أن ذكر سبحانه حالة المحتضر أوضح مرحلته الأخيرة التي يسلم فيها الروح وأخبر عن مصيره ؛ فذكر أنه إن كان من المقربين وهم السابقون المذكورون في أول السورة ، فسوف يلقى روحاً أي استراحة ، وقيل رحمة ، ويلقى ريحاناً أي رزقاً ، أو الريحان المعروف . ويدخل جنة ينعم فيها بصنوف النعيم تبشرهم الملائكة بذلك عند الموت . ورد في الحديث أن ملائكة الرحمة تقول للمحتضر : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه ؛ أخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، وإن كان المحتضر من أصحاب اليمين تسلم عليه الملائكة وتبشره وتقول له : لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين. وإن كان من المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى،وهم أصحاب الشمال فله نزل من حميم . والنزل أول ما يقدم للضيف من الضيافة ، أي يسقى من الحميم حتى تتقطع أمعاؤه ويصطلي بنار الجحيم . قال تعالى :

« غير مدينين » غير مقهورين .

« فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) » .

ثم أخبر سبحانه أن كل ما جاء في هذه السورة من أخبار الخلق وأحوالهم في الآخرة ، لهو الحق الثابت واليقين الذي لا شك فيه ؛ وهو من إضافة الشيء إلى نفسه . وختم السورة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح باسم ربه العظيم — قيل أي يُنزّهه عما لا يليق به مما ينسبه إليه الكافرون— وقيل يذكر ربه العظيم ويسبحه تعالى :

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) » .

عن عقبة بن عامر قال : « لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال النبي صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في ركوعكم .. ولما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) قال النبي صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في سجودكم » .

« فروح وريحان » فله رحمة واستراحة . « فنزل » فله قرى وضيافة . « حميم » ماء تناهت حرارته . « تصلية جحيم » مقاساة حر النار أو إدخال فيها .

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَـٰطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) » .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) يخبر سبحانه أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي من الحيوانات والنباتات ؛ كما قال في الآية الأخرى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن ما من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) سورة الإسراء آية ٤٤ .

(وهو العزيز) أي الذي خضع له كل شيء ، (الحكيم) في خلقه وأمره وشرعه .

وأخبر سبحانه أنه مالك السموات والأرض المتصرف في خلقه كما يشاء ، فيحيي الأموات ويبعثهم بعد أن صاروا رميماً ، ويميت الأحياء بعد انتهاء الآجال المقدرة لهم لا يعجزه شيء .

(سبح الله) نزه الله ومجده . (العزيز) القوي الغالب . (الأول) السابق على جميع الموجودات . (الآخر) الباقي بعد فنائها . (الظاهر) بوجوده ومصنوعاته وتدبيره . (الباطن) بكنه ذاته عن العقول.

أما قوله تعالى: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فقد أوضح تفسيرها رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة عند مسلم حيث يقول : أنت الأول فليس قبلك شيء .. وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء . وأنت الباطن فليس دونك شيء .

وهو سبحانه قد أحاط علمه بكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم أخبر سبحانه عن قدرته العظيمة حيث خلق السموات والأرض في ستة أيام وعن استوائه على العرش بعد خلقهن . والاستواء على العرش صفة من صفات الله تعالى يثبتها أهل السنة على حقيقتها دون التعرض لها بالتكييف أو التشبيه والتمثيل والتعطيل إذ أن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ثم أخبر سبحانه عن سعة علمه وأنه يعلم ما يلج في الأرض ، أي يدخل فيها من مطر وحبوب ؛ وما يخرج منها من نبات وزروع وثمار وغيرها ، وما ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والأقدار والأحكام ، وما يعرج فيها أي يصعد فيها من ملائكة وأعمال للعباد – ثم هو مع استوائه على عرشه وعلوه على خلقه قريب من عباده بعلمه أينما كانوا وحيثما حلوا في البر والبحر – في الليل والنهار ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم فهو بصير بكل ما يعملون . قال تعالى :

« هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا

(ما يلج) ما يدخل . (ما يعرج فيها) ما يصعد إليها . (وهو معكم) بعلمه المحيط بكل شيء .

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) » .

كرر سبحانه الإخبار عن أنه له ملك السموات والأرض ، بعد ذكر ذلك في أول السورة للتأكيد وليستدل العباد على تألهه وعبادته - فالمالك المتصرف في السموات والأرض وفي جميع مخلوقاته هو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه ، وإليه مرجع أمور الخلائق يوم القيامة يحكم بينهم بعدله . وأخبر سبحانه أنه المتصرف في الليل والنهار .. يدخل الليل في النهار بأن ينقص من الليل تارة ويزيد في النهار فيكون النهار أطول من الليل ، ويدخل النهار في الليل بأن ينقص من النهار تارة ويزيد في الليل فيكون الليل أطول من النهار ، وتارة يتركهما معتدلين ، وهو سبحانه العليم بما تكنه السرائر وما تخفي الصدور . قال تعالى :

« لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٥) يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦) » .

ثم أمر سبحانه بالإيمان به والإنفاق في سبيله في كل وجوه البر .. وأخبر سبحانه أن المال ما هو إلا عارية مسترجعة يخلف الناس فيه بعضهم بعضاً فالخلف قد ورثوه عن سلفهم وسيخلفه فيه غيرهم، وما دام الأمر كذلك فالإنفاق خير من الإمساك ، ثم وعد سبحانه بالجزاء العظيم لمن يستجيب لأمره فيؤمن به وينفق في سبيله . قال تعالى :

(يولج الليل) يدخله .

« آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) » .

وعقب على ذلك سبحانه بسؤال الكفار عن عدم الإيمـان بالله ، والرسول بين أظهرهم يدعوهم إليه بالبراهين والمعجزات الظاهرة ؛ وقد أخـذ الله عليهم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم بأن الله ربهم لا إله لهـم سواه ، أو أخذ عليهم الميثاق بإقامة الحجج والبراهين التي تدعو إلى الإيمان بالله ومتابعة الرسول. قال تعالى :

« وَمَـا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) » .

أي إن كنتم تريدون الإيمان فأحرى به الآن بعد قيام الحجج ببعثة الرسول محمد ﷺ .

ثم أخبر سبحانـه عن إنزاله القرآن على الرسول ﷺ : آيات واضحات الدلالة ليخرج به الناس من ظلمات الشرك والضلالة إلى نور التوحيد والهـدى ؛ ذلك لرأفته سبحانه بعباده ، وهو الرؤوف الرحيم بهم . قال تعالى :

« هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ ٱللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) » .

ومرة أخرى عاد سبحانه يحض على الإنفاق متسائلاً عن السبب في الإحجام عنه مخبراً أن الله سبحانه هو الذي يرث السموات والأرض بعد فناء أهلهـا ؛ وذلك ما يدعو إلى اغتنام الفرصة للإنفاق قبل فواتها . قال تعالى :

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ » .

ثم أوضح سبحانه التفاوت في الأجر والدرجات بين من أنفق في سبيل الله وقاتل قبل فتح مكة وبين من أنفق وقاتل بعد ذلك . فإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفاً والحاجة إلى الإنفاق والقتال كانت أشد . أما بعد الفتح فقد أضحى الإسلام عزيزاً وكثر البذل في سبيل الله . وقد شمل الله كلا الفريقين بكرمه ووعدهما بالجزاء بالحسنى ، وهي الجنة تتفاضل فيها درجاتهم ، وهو سبحانه خبير بأعمال عباده ، عليم بإخلاصهم . قال تعالى :

« لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) » .

وعاد سبحانه يكرر موضوع الإنفاق في سبيله ويندب إليه ، وأنزله منزلة القرض المتطلب بَدلاً ،ووصفه بالحسن ليخرجه المنفق خالصاً من قلبه دون منّ أو أذى ، ووعد عليه بالجزاء الضافي وهو المضاعفة من أضعاف كثيرة .

« مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) » .

(الحسنى) المثوبة الحسنى « الجنة » . (قرضاً حسناً) محتسباً به ، طيبة به نفسه .

وهذا الأجر الكريم يحصل عليه المؤمنون المتصدقون يوم القيامة يوم يسعى نور المؤمنين والمؤمنات إذ يمضون على الصراط بين أيديهم على قـدر أعمالهم ، يكون أمامهم وعن أيمانهم وقيـل : أمامهم النور يستضيئون به ، ويأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم ، ويقال لهم : أبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيهـا أبداً في نعيم دائم وهذا الخلود في النعيم هو الفوز العظيم . قال تعالى :

« يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَـا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) » .

وعلى العكس من حـال المؤمنين فريق المنافقين الذين وصف الله حـالهم بقوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم) أي تمهلوا وانتظرونا لنستضيء من نوركم ، ذلك لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة ، فيقول المؤمنون أو تقول لهم الملائكة : (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) أي ارجعوا إلى الموضع الذي انبعث منه النور فالتمسوا فيه نوراً لأنفسكم وعندئذ يفصل بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب يوصل إلى الجنة (باطنه) (أي داخل هذا الحاجز مما يلي المؤمنين : الرحمة ، والمراد الجنة وما فيهـا من النعيم ؛ وظاهر هـذا الحاجز (من قبله) أي من الجهة والجانب الذي يلي المنافقين : العذاب ، والمراد بذلك النار فينـادي المنـافقون المؤمنين من وراء الحاجز قائلين (ألم نكن معكم) أي في الدنيا نصلي كما تصلون ، ونصنع مـا تصنعون ؟ فيرد المؤمنون عليهم بقولهم : (بلى) أي نعم ، كنتم معنـا كما تذكرون (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أي أهلكتموها بالنفاق،وأظهرتم خلاف

مـا تبطنون (وتربصتم) أي انتظرتم الدوائر بالنبي والمسلمين « وارتبتم » أي شككتم في الإيمان والنبوة والبعث بعد الموت « وغرتم الأمـــاني » خدعتكم الأماني الـكاذبة ، ومنهـــا تمنيتم هلاك الرسول وانهزام المسلمين وكسر شوكة الإسلام . وما زلتم كذلك في نفاق وتربص وارتياب « حتى جاء أمر الله » أي حتى نزل بكم الموت « وغركم بالله الغرور » وخدعكم الغرور وهو الشيطان . ثم أيأسهم الله بقوله : « فاليوم الذي لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا » أي لو أردتم الافتداء من عذاب أو بذل العوض عنه لما قبل منكم كما أنه لا تقبـل فدية من المشركين « مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » مسكنكم النار هي أولى بكم من كل منزل لما أسلفتم من الذنوب ، وبئست النـــار من مصير تنقلبون إليه . قال تعالى :

« يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَـٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥) » .

(انظرونا) انتظرونا . (نقتبس) نصب ونأخذ . (بسور) حاجز بين الجنـــة والنار ، فتنتم أنفسكم) أهلكتموها بالنفاق . (تربصتم) انتظرتم بالمؤمنين النوائب . (غرتكم الأماني) خدعتكم الأباطيل . (الغرور) الشيطان وكل خادع . (هي مولاكم) النار أولى بكم أو ناصركم .

ثم وجه سبحانه الخطاب لفريق من المؤمنين ، فترت عزائمهم بعد الهجرة عما كانوا عليه بمكة من جهاد النفس وأخذها بالمداومة على الطاعة ، فعاتبهم على ذلك بقوله : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) أي ألم يأت ويحن الوقت الذي تلين فيه قلوب المؤمنين وتخضع لذكر الله ؟ والمراد بالذكر المواعظ . ولما نزل من الحق وهو القرآن . حذرهم أن يكونوا كسابقيهم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى طال بهم الزمان ، وبعدوا عن التذكرة ، فقست قلوبهم وأضحى الكثيرون منهم خارجين عن دينهم ، رافضين للعمل بما في كتبهم . قال تعالى :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَٰسِقُونَ (١٦) ».

ثم أخبر سبحانه أن من دلائل ربوبيته إحياء الأرض المجدبة بالغيث بعد إمحالها ؛ وفي ذلك إشارة إلى قدرته على البعث وإحياء الموتى بعد أن صاروا رميماً . وفيه تمثيل لقدرة الله على إحياء القلوب القاسية بالذكر والموعظة . قال تعالى :

« ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) » .

(ألم يأن) ألم يجيء الوقت . (أن تخشع) تخضع وترق وتلين . (الأمد) الأجل أو الزمان .

أي قد أوضح الله تعالى أدلة قدرته للعباد لعلهم يعقلون ذلك .

وعاد سبحانه يذكر المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً أي بما أنفقوا في سبيله ، ويذكر ما وعدهم به من مضاعفة أجر ما أنفقوا إلى أضعاف كثيرة ويذكر أن لهم فوق هذه المضاعفة أجراً كريماً ، أي دخول الجنة ، قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) » .

ثم عقب سبحانه بذكر الصديقين والشهداء ، وذكر أن لهم أجراً على تصديقهم وإيمانهم ، ولهم نور على الصراط يهتدون به إلى الجنة . والصديق هو الكثير الصدق وهو وصف للمؤمنين لأنهم آمنوا وصدقوا بجميع أخبار الله ورسله ، والشهداء هم المؤمنون المخلصون — أو الأنبياء لأنهم يشهدون على الأمم يوم القيامة ، أو الذين استشهدوا في سبيل الله وعلى العكس منهم الذين كفروا بالله وكذبوا بآياته لهم في الآخرة عذاب الجحيم . قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١٩) » .

بعد ذلك وجه سبحانه أنظار العباد إلى الزهد في الدنيا ، وأخذ الأهبة للحياة الأخرى ، حياة النعيم الدائم ، ووصف الله سبحانه الدنيا بأنها

(لعب) أي : باطل لا طائل تحته (ولهو) كل ما يلهي على اختلاف صوره (وزينة) كل ما يكون له منظر حسن من لباس وفراش وغيره (وتفاخر) كل ما يفخر به الناس على بعضهم من نسب ومال وجاه (وتكاثر) يذكر البعض شيئاً مما عنده من مال والولد فيذكر غيره أكثر منه .. ثم ضرب سبحانه المثل للدنيا فقال إنها كالمطر الذي يسقي الأرض فتنبت النبات الذي (يعجب الكفار) والكفار هم الزراع . ثم يهيج وينضج فلا يلبث أن يصفر ويجف ويتكسر. ذلك هو مثل الحياة الدنيا . أما الآخرة ففيها (عذاب شديد) للكافرين جزاء كفرهم (ومغفرة من الله ورضوان) للمؤمنين أوليائه وأهل طاعته .

ثم يكرّر الله تعالى أن الدنيا بما فيها من متع ما هي إلا زهرة ذاوية ومتعة لا تدوم يغتر من ركن إليها ولم يشتغل فيها بطلب الآخرة .. قال تعالى :

« ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (٢٠) » .

(تكاثر) مباهاة وتطاول بالعَدد والعُدد . (أعجب الكفار) راق الزراع . (يهيج) يمضي إلى أقصى غايته وييبس . (يكون حطاماً) فتاتاً هشماً متكسراً .

ثم وجه سبحانه العباد إلى اكتساب الوسيلة الموصلة إلى الآخرة والتي يحصل بها العبد على الثواب العظيم ، ودخول الجنة دار كرامة الله الموصوفة بأن عرضها كعرض السماء والأرض ، وذلك ما يشعر بعظم سعتها وكثرة خيراتها ؛ أعدها الله لمن صدّق به وبرسله وجميع ما أنزل عليهم من كتبه . وهذا الجزاء يتفضل الله به على من يشاء من عباده . وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم . قال تعالى :

« سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢١) » .

ثم أخبر سبحانه عن قدره السابق في خلقه قبل أن يخلقهم وذكر أن كل المصائب التي تعترضهم في دنياهم هي بقضائه وقدره سواء ما كان منها في الأرض كالجدب وقلة النبات والثمار ، أو ما كان منها في الأنفس كالأمراض وفقد الأولاد . وقد كتب هذا التقدير في اللوح المحفوظ من قبل أن يقع ، وكتابته للأشياء قبل وقوعها رغم كثرتها أمر هين ويسير على الله .. قال تعالى :

« مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ (٢٢) » .

(من قبل أن نبرأها) أي : من قبل أن نخلق المصيبة ، أو من قبل

(نبرأها) نخلقها .

أن تخلق الأنفس أو الأرض كل ذلك جائز في معنى الآية .

وما دام الأمر كذلك ، فيجب أن لا يحزن العباد على ما فاتهم من حظوظ الدنيا ، فهي مقسومة مكتوبة ولا يفرحوا بما أوتوا فيها من لذة النعيم . بل يجب التسليم لقضاء الله والرضا بما قسم للعبد من خير وشر .. والفرح المذموم هو الذي يقود إلى الاختيال والكبر والطغيان . والحزن المذموم هو الذي يخرج عن الصبر والتسليم .. قال تعالى :

« لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) » .

ثم أوضح سبحانه أن من دأب كل مختال فخور البخل بما آتاه الله وعدم الإنفاق منه وحض غيره على البخل . ومن يفعل ذلك أي يبخل بما آتاه الله أو يعرض عن أوامر الله ونواهيه ، فلن يضر الله شيئاً ، فهو سبحانه غني عن كل عباده ، محمود على كل أفعاله . قال تعالى :

« الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) » .

ثم أخبر سبحانه عن إرسال الرسل للأمم لهدايتهم وتأييده لهم بالبينات ، وهي الآيات الواضحة والمعجزات الدالة على صدقهم ، وأيدهم بالكتب أنزلها عليهم فيها الشرائع والأحكام ، وأنزل معهم الميزان وهو العدل ، ليقوم الناس به فيما بينهم ، وليقوموا باتباع الحق الذي

« لكيلا تأسوا » لكيلا تحزنوا حزن قنوط . « لا تفرحوا » فرح بطر واختيال . « مختال فخور » متكبر مباه متطاول بما أوتي .

جاءت به الرسل ، وأنزل سبحانه الحديد ، أي خلقه وأوجده ، وجعل فيه قوة تقمع الجاحدين والمعاندين للحق .. وهو إلى جانب ذلك فيه منافع للناس حيث يصنعون منه ما ينتفعون به في دنياهم وما يستخدمونه في مصالحهم مما هو معروف ، وليعلم ويرى من ينصر دينه بحمله في سبيله لجهاد أعدائه ، وينصر رسله وهو موقن بثواب ذلك ، مؤمناً به غيباً ، وقيل : ينصر رسله أي يؤمن بهم بالغيب ؛ ولا يكذبهم . وأخبر سبحانه أنه القوي في سلطانه ، العزيز في ملكه .. قال تعالى :

« لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزانَ لِيَقُومَ ٱلنَّـاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّـاسِ وَلِيَعْـلَمَ ٱللهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) » .

وفصّلت الآية التالية ما أجمل في الآية قبلها ، حيث ذكر الله تعالى فيها أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وجعل في نسلها النبوة ، فكل الأنبياء من ذريتهما. وكانت الكتب السماوية ينزلها الله على الرسل لتتلوها على الأمم. فكان منهم مهتدون على قلة ؛ وكثير منهم فاسقون ، أي خارجون عن أمر الله وطاعته . وكان آخر من أتبعه الله بالأنبياء عيسى بن مريم أنزل عليه كتابه الإنجيل ، وجعل في قلوب أتباعه الرحمة والرأفة ، وأخبر سبحانه أن أتباع عيسى ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية لم يفرضها الله عليهم ؛ وهي الانفراد في الجبال والانقطاع عن الناس في

« الميزان » العدل وأمر به الناس . « وأنزلنا الحديد » خلقناه أو هيأناه لكم . « بأس شديد » قوة شديدة .

الصوامع للعبادة فشقوا بذلك على أنفسهم ، ولم يقم البعض منهم بواجب ما افترضه على نفسه نحو هذه الرهبانية ، بل كفر بدين عيسى وتهود واتبع دين ملوكه والبعض الآخر ثبت على دين عيسى حتى أدرك النبي محمداً ﷺ فآمن به ؛ وهؤلاء سوف يعطيهم الله الأجر كاملاً غير منقوص . قال تعالى :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ (٢٧) » .

وختم سبحانه السورة بتوجيه الخطاب لمؤمني أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى آمراً إياهم أن يتقوا الله وأن يصدقوا برسالة النبي ﷺ ووعدهم على ذلك بمضاعفة الأجر لإيمانهم برسلهم وكتبهم وإيمانهم بالرسول محمد ﷺ والقرآن وبأن يجعل لهم نوراً يمشون به على الصراط أو هدى يتبصرون به من الضلالة وبغفران ذنوبهم وهو سبحانه الغفور لذنوب عباده الرحيم بهم .. قال تعالى :

« قفّينا » أتبعنا . « الذين اتبعوه » على دينه الذي أرسل به . « رأفة ورحمة » لينا وشفقة . « رهبانية » مغالاة في التعبد . « ما كتبناها عليهم » ما فرضناها عليهم بل ابتدعوها. « فما رعوها » بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ ، يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ (أي نصيبين) مِن رَّحْمَتِهِۦ ، وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) » .

ومعنى قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله » أي ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أنه لا أجر لهم ولا نصيب كالأجر الذي تفضل الله به على المؤمنين .. والأجر والثواب وكل الخير بيد الله يهبه لمن يشاء من عباده ، وهو سبحانه صاحب الفضل والكرم الواسع .. قال تعالى :

« لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) » .

« يؤتكم كفلين » نصيبين . « لئلا يعلم » ليعلم و « لا » مزيدة .

تفسير سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

« قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) » .

بدأ الله سبحانه هذه السورة بحكم من أحكام الدين هو الظهار ؛ بأن يقول الرجل لإمرأته : أنت علي كظهر أمي، يريد تحريمها عليه ، وإنزالها منزلة الأم، يشبهها بها في التحريم . وكان الظهار في الجاهلية يعتبر طلاقاً . وسبب نزول هذه الآية أن امرأة ظاهر منها زوجها فجاءت إلى رسول الله ﷺ تخبره بذلك وتحاوره . والمحاورة هي المراجعة في الكلام ، وكانت تقول في معرض كلامها : اللهم إني أشكو إليك انفرادي وفقري . فلم تبرح مكانها من رسول الله ﷺ حتى أنزل الله في الظهار حكماً أبطل به تقاليد الجاهلية ، وشرع الكفارة في الظهار مع بقاء المرأة على نكاحها ، وأخبر سبحانه أنه سميع لأقوال عباده بصير بأعمالهم . فيشرع لهم ما يصلحهم من الشرائع والاحكام .

ثم أخذ يفصل سبحانه في موضوع الظهار ، ويذم فاعله ويخطئه ويخبر أن

إنزال الزوجة منزلة الأم باطل فإن الأم في الحقيقة إنما هي الوالدة ويخبر أيضاً أن المظاهرين ليرتكبون بظهارهم أمراً منكراً وكذباً باطلاً ، ووعد سبحانه بالمغفرة لمن تاب عن ارتكاب هذا الإثم ؛ فهو سبحانه صاحب العفو العظيم والمغفرة .

ثم حددت الآيات التالية الكفارة الواجبة على المظاهر ، وهي على ثلاثة أنواع مرتبة :

فالأول تحرير رقبة .
والثاني صيام شهرين متتابعين .
والثالث إطعام ستين مسكيناً .

وهذه الكفارة يجب أن يبذلها المظاهر قبل أن يتصل بأهله اتصالاً جنسياً . وذلك معنى قوله تعالى : (ثم يعودون لما قالوا) قال الإمام أحمد : وهو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه ، فلا تحل له حتى يكفّر . وهو أيضاً معنى قوله تعالى : (من قبل أن يتماسا) . والمسيس معناه الوطء ، فلا يحل للمظاهر وطء امرأته قبل أن يكفّر . وأخبر سبحانه أن هذا الحكم الذي شرعه في بذل الكفارة هو للزجر وعدم العودة إلى المظاهرة ، وهو سبحانه عليم بأحوال عباده ، خبير بما يصلحهم . قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ

(يظاهرون) يحرمون نساءهم تحريم أمهاتهم . (منكراً من القول) قولاً ينكره الشرع والعقل . (زوراً) كذباً منحرفاً عن الحق .

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا، ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) » .

أي شرع هذا للتصديق بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو من عند الله . وأن ما وصف من الكفارات في الظهار محارم الله فلا تنتهك ، ومن جحدها وكذّب بها فله في الآخرة عذاب أليم .

ثم أخبر سبحانه عن المحادين ، أي المخالفين لأمره المعاندين لرسوله ، قيل المراد بهم اليهود والمنافقون وأنهم (كبتوا) أهلكوا ولُعنوا كما فعل ذلك بأمثالهم من قبل ممن كان على شاكلتهم ، وأخبر سبحانه أنه أنزل إلى رسوله آيات واضحات الدلالة توضح الفرائض والأحكام ، فمن جحدها ولم يعمل بما دلت عليه فله في الآخرة عذاب مهين يذهب بكبريائه ، وسوف يُنزل به العذاب يوم يبعث الله الخلائق من قبورهم فيحاسبهم ويخبرهم بما عملوا من خير وشر إذ قد أحصى الله عليهم كل شيء وهم قد نسوا ما اقترفوه ، ولكن الله سبحانه بعلمه الواسع لا يغيب عنه شيء فهو شهيد لما تعمله العباد .. قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ

(يتماسا) يستمتعا بالوقاع ، أو دواعيه . (يحادّون) يعادون ويشاقون ويخالفون . (كبتوا) أذلوا .

قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) » .

ثم أكد سبحانه في الآية التالية ما سبق من إحاطة علمه بكل شيء في السموات والأرض « حتى ما يجري بين الناس خفية كالمسارّة التي تكون بين ثلاثة يكون الله تعالى معهم فيها بعلمه ، وبين خمسة يكون الله فيها سادسهم ، أو تكون بين أقل أو أكثر من هذا العدد فإن الله تعالى يكون بين جميع العباد بعلمه ، فهو سبحانه مع علوه على عرشه قريب من عباده بعلمه حيث كانوا وفي أي موضع انتقلوا . ثم يخبر العباد بما عملوه في الدنيا يوم القيامة إنه العليم بكل شيء . قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) » .

ثم قص سبحانه في الآية التالية خبر اليهود والمنافقين وتناجيهم ونهي الرسول لهم عن ذلك ، لأنهم كانوا يؤذون المؤمنين بنجواهم فلم ينتهوا ولم تكن نجواهم إلا في الإثم والعدوان على غيرهم ، والتواصي بمعصية الرسول فيما بينهم ثم هم إذا قدموا عليه بدءوه بتحية لم يحيّ الله بها رسوله وهي أن يقولوا : السّام

(أحصاه الله) أحاط به علماً . (نجوى ثلاثة) تناجيهم ومسارتهم . (هو معهم) بعلمه المحيط بكل شيء .

عليكم .. والسام هو الموت ! وكان الرسول صلى الله عليـــه وسلم يرد عليهم بقوله : وعليكم .. ! وقد غرهم حلم الله في عدم النقمة منهم فقالوا في أنفسهم : لو كان هذا نبياً ونحن نعامله هذه المعاملة لعاجلنـا الله بالعقوبة . فرد الله عليهم بقوله : (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) أي يكفيهم ذلك عذابـــاً إذ يدخلونها فيصلون حرها ونارها وبئس هـذا المصير الذي ينتهون إليه .. قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَـــاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِـهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٨) » .

بعد ذلك أدّب سبحانه المؤمنين ونهاهم أن يسلكوا مسلك اليهود والمنافقين في التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول بل تكون نجواهم بـ (البرّ) وهو يشمل كل أوجه البر وفي طليعتها الوصية بأداء الفرائض وطاعـة الله وتقواه في السر والعلن ، والقول والفعل .. فهو سبحانه إليـه مرد الخلائق وجمعهم يوم القيامة .. قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) » .

(لولا يعذبنا) هلاّ يعذبنا . (حسبهم جهنم) كافيهم جهنم عذاباً . (يصلونها) يدخلونها أو يقاسون حرها .

ثم أخبر سبحانه أن تناجي اليهود والمنافقين بالإثم والعدوان إنما هو من تزيين الشيطان ليؤذوا بذلك المؤمنين وليحزنوهم وليس ذلك بالذي يضر المؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله تعالى وتقديره السابق . وأمر سبحانه بصدق الاعتماد عليه ، فليس يضر المؤمن مع التوكل على الله شيء . قال تعالى :

« إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠) ».

ثم ذكر سبحانه أدباً آخر للمؤمنين ، وهو التوسعة في المجلس لمن يقدم عليهم ويريد مشاركتهم فيه .

قيل : كان الصحابة رضوان الله عليهم يتنافسون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلهم يرغب في القرب منه فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض في المجلس ووعدهم على ذلك أن يفسح لهم في الجنة ، وقيل إن المجلس عام لا يختص بمجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والإفساح في كل مجلس مطلوب إذ هو مظهر من مظاهر الألفة والتقدير . وأمرهم الله أيضاً بتلبية داعي الخير والنهوض إلى الصلاة أو إلى الجهاد إذا طلب ذلك منهم ، ففي ذلك رفع لدرجاتهم في الدنيا والاخرة . وأخبر سبحانه أنه يرفع درجات المؤمنين بطاعتهم لرسوله وتوسعتهم لإخوانهم في المجلس ، ويرفع درجات العلماء بفضل علمهم ، وفي ذلك ترغيب في طلب العلم وهو سبحانه خبير بمن يستحق ذلك .. قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَٰلِسِ

(ليحزن) ليوقع في الهم الشديد . (تفسحوا في المجالس) توسعوا فيها ولا تضاموا .

فَافْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَانشُزُوا » ـ أي : ارتفعوا وقوموا ـ « يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) » .

وفي الآية التالية يأمر الله المؤمنين عند مناجاتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتقديم صدقة .. قال ابن عباس رضي الله عنهما : « إن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقوا عليه ؛ فأراد الله أن يخفف على نبيه ، ويردعهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقة على المناجاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم » . وأخبر سبحانه أن تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول خير للمؤمنين وطهرة وتزكية لهم ، ورخص سبحانه في إسقاطها عن الفقير الذي لا يجد ما يتصدق به ، ثم أسقطها عن الأغنياء أيضاً بقوله : (ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) الآية والمعنى : هل خفتم أيها الأغنياء الفقر من تقديم صدقة بين يدي مناجاتكم الرسول ؟ وحين لم تفعلوا ما أمرتم به خفف الله عنكم ورخص لكم في مناجاة الرسول دون تقديم شيء من الصدقة . ثم أمرهم بإقامة الصلاة المفروضة ، وإيتاء الزكاة المكتوبة ، وبذل الجهد في العمل بطاعة الله ورسوله فالله خبير بكل ما يعمله العباد وسيجزيهم عليه . قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ

(انشزوا) انهضوا إلى عمل خير . (أأشفقتم) أخفتم الفقر والعيلة .

فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك ينكر فيها الله سبحانه على المنافقين موالاتهم لليهود الذين غضب الله عليهم ويذكر ذبذبتهم فهم ليسوا من المسلمين ولا من اليهود ، إذا اجتمعوا بالمسلمين أكدوا لهم الأيمان على صدق إسلامهم وهم كاذبون، يعلمون ذلك في قرارة أنفسهم . وإذا اجتمعوا باليهود أطلعوهم على أسرار المسلمين ، وتناولوهم بالذم ، من أجل ذلك هيأ الله لهم في الآخرة عذاباً شديداً ، لأن أعمالهم هذه هي بحق من أسوأ الأعمال وأشنعها . قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) » .

وأخبر سبحانه أن المنافقين كانوا يتخذون أيمانهم الكاذبة ستراً ووقاية لهم من القتل يدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ، فصدوا بذلك المؤمنين عن جهادهم — أي جهاد المشركين — وقتلهم وأخذ أموالهم ، وسوف يلقون جزاء ذلك في الآخرة عذاباً مهيناً — وحينئذ لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في رد عذاب الله عنهم ، وسوف ينزلون جهنم يخلدون فيها . قال تعالى :

« ٱتَّخَذُوا أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ

(تولوا قوماً) اتخذوهم أولياء . (غضب الله عليهم) هم اليهود . (جنّة) وقاية لأنفسهم وأموالهم .

مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (١٧) » .

ثم أخبر سبحانه أن المنافقين سوف يسلكون يوم القيامة مع الله نفس المسلك الذي كانوا يسلكونه في الدنيا مع المؤمنين حيث يحلفون له كما كانوا يحلفون لهم أنهم كانوا صادقين في إيمانهم ويعتقدون أن حلفهم أمام الله سوف ينقذهم..وقد أكد الله تعالى كذبهم بقوله : (ألا إنهم هم الكاذبون) لم يكونوا على شيء من الحق ، وقد تملك الشيطان نفوسهم واستولى عليها وأشغلهم عن ذكر الله والعمل بطاعته ، فهم حزب الشيطان وجنده ، ونبه سبحانه أن جند الشيطان وحزبه هم الهالكون . قال تعالى :

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ (١٨) ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ، أُولَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ، أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (١٩) ».

ثم أخبر سبحانه أن كل محاد لله ورسوله ، أي مشاق لهما مجانب للهدى، هم في عداد الأشقياء الذين يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة . وقد كتب سبحانه في الأزل أن الغلبة والنصر له ولرسله على أعدائه ، فهو سبحانه (قوي) لا يغلب و (عزيز) يهب العزة لرسله وللمؤمنين . قال تعالى :

(لن تغني) لن تدفع . (استحوذ عليها) استولى وغلب على عقولهم .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) » .

وختم سبحانه السورة ببيان حقيقة الموالاة والبراءة المطلوبة من المؤمنين فقال لرسوله إنك لن تجد مؤمناً يصدق ويوقن بربوبية الله وألوهيته ، وبيوم القيامة يحب أعداء الله ورسوله ويواليهم ولو كانوا من أقرب الناس إليه كالآباء والأبناء والإخوة وأهل الحي الذين ينتمي إليهم . إذ لا يجتمع في قلب مؤمن إيمان بالله ومحبة لمن عصى الله ورسوله ، ذلك لأن المؤمنين قد أثبت الله الإيمان في قلوبهم ؛ وكأنه مكتوب ومنقوش عليها ثم وصفهم بأنـه قواهم ونصرهم على أعدائهم في الدنيا . أما في الآخرة فلهم جنات تجري من تحتها الأنهار من ماء ولبن وخمر وعسل يخلدون فيها ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وقد رضي عنهم لما قدموا من الطاعات ، ولعدم موالاتهم لأعدائه ، ورضوا عنه لما وهبهم من النعيم المقيم في دار الكرامة . ثم أشار إليهم مرة أخرى إشارة إعزاز ومحبة وجعلهم حزباً ونسب حزبهم إليه . أولئك قوم يحبهم الله فهم جنده وأهل طاعته وجند الله وأهل طاعته هم الفائزون . قال تعالى :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ

(يحادون) يعادون ويشاقون ويخالفون . (الأذلّين) الزائدين في الذلة والهوان .

عَشِيرَتَهُمْ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَـٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢) ».

تفسير سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِنْ دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ (٢) » .

أخبر سبحانه تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من الكائنات فهو يسبحه ويمجده ويقدسه وأنه سبحانه العزيز في ملكه ، الحكيم في شرعه وقدره .

ثم ذكر سبحانه قصة يهود بني النضير وكانوا يسكنون حصوناً بمقربة من المدينة وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فأرادوا الغدر .. وأطلعه الله على ذلك ..! فخرج إليهم وحاصرهم في حصونهم ، وضيق عليهم الخناق ، ثم صالحوه صلى الله عليه وسلم وخرجوا من جواره . وذلك معنى قوله

« سبح لله » نزهه ومجده تعالى . « الذين كفروا » هم يهود بني النضير . « لأول الحشر » في أول إخراج وإجلاء إلى الشام . « لم يحتسبوا » لم يظنوا أو لم يخطر لهم ببال . « قذف » ألقى وأنزل إنزالاً شديداً .

تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) أي لأول مرة حشروا فيها وأخرجوا من المدينة، والحشر الثاني إما أن يراد به حشرهم إلى خيبر حيث أخرجهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى خيبر ، أو يراد به حشرهم يوم القيامة .

وقد امتن الله على المؤمنين بإخراج بني النضير من جوارهم بالمدينة ، وما كان يدور بخلدهم أن يخرجوا لكثرة عدتهم ومنعة حصونهم ، وكان بنو النضير أنفسهم يظنون أن حصونهم تقيهم وتحميهم بأس الله ونقمته ، ولكن الله تعالى جاءهم بما لم يقع في حسبانهم، حيث ألقى الرعب في قلوبهم فاستسلموا وانصاعوا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث أمرهم بالجلاء فأخذوا يخربون بيوتهم، أي ينقضون منها الأخشاب والأعواد ليحملوها معهم وأخذ المؤمنون ما بقي منها ويهدمون أسوار الحصون ليتسع لهم الدخول . ووجه الله سبحانه أنظار ذوي البصائر من عباده لأخذ العبرة من هذا المصير ؛ فنقمة الله تعالى لاحقة بكل عاص لله ورسوله . ثم أخبر سبحانه أن هذا الجلاء ، جلاء بني النضير عن مواطنهم ، كان حتماً واقعاً فقد كتبه الله عليهم ولولاه لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي ، كما فعل ببني قريظة ذلك مع ما أعده لهم في الآخرة من عذاب النار .. ثم بين سبحانه السبب في نقمته ببني النضير ، وهو المشاقة لله ورسوله أي معصية الله ورسوله ، ومخالفة أمره ، والتكذيب بما أنزله من البشارة ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم يعلمون ذلك حق العلم وتلك عاقبة كل عاص لله ، فالله سبحانه شديد العقاب يمهل ولا يهمل . قال تعالى :

« وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ،

(الجلاء) الخروج من الوطن بالأهل والولد . (شاقوا) عصوا .

وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤) » .

ولقد كان من وسائل الإرهاب التي عمد إليها المؤمنون للتضييق على بني النضير قطع نخيلهم وأشجارهم، فهون الله تعالى ذلك على المؤمنين وأخبرهم أن ما قطعوه من النخيل أو تركوه قائماً ولم يقطعوه، كل ذلك قد أذن لهم فيه، إذ في القطع نكاية وخزي للفاسقين، والمراد بهم بنو النضير، فقد خرجوا عن أمر الله، ونكثوا عهد رسوله . قال تعالى :

« مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ (٥) » .

اللينة هي كرام النخل أو هي ألوان من التمر سوى العجوة .

ثم أوضحت الآيتان التاليتان حكم الفيء ؛ وهو ما يؤخذ من مال الكفار من غير قتال ولا إجهاد في تحصيله.. قال تعالى :

« وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ».

والمعنى في الآية الأولى: ما أعطى الله رسوله وصيره في قبضته من أموال بني النضير ؛ فهي خالصة له لا تقسم كما تقسم الغنائم على الجيش إذ لم يوجف أي لم

(لينة) نخلة أو نخلة كريمة . (على أصولها) على سوقها . (ما أفاء الله) ما رد وما أعاد من الأموال . (فما أوجفتم عليه) فما أجريتم على تحصيله . (ركاب) ما يركب من الإبل خاصة .

يمش المسلمون إلى تحصيلها بخيل ولا إبل ولم يجهدوا أنفسهم في كبير قتال ونضال. بل سلط الله رسوله على بني النضير كما يسلط رسوله على أعدائه وقد قذف الرعب في قلوبهم فاستسلموا ..! فجعل الله أموالهم خاصة له ، يضعها حيث يشاء لأنه قدير على ما يشاء .. وقوله تعالى : (فما أوجفتم عليه من خيل) أي فما أسرعتم وأنتم ركوب عليه .. من الوجيف ، والركاب هي الإبل .

والمعنى في الآية التالية : ما أعطى الله رسوله وصيره في قبضته من أموال القرى الكافرة التي استسلمت من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، فهو فيء لا يقسم قسمة الغنيمة بل يجعل مصرفه ، كما في الآية ، لله وللرسول، ولذوي قرباه من مؤمني بني هاشم وبني المطلب ، ولليتامى الفقراء والمساكين والبؤساء ، ولابن السبيل وهو المنقطع عن بلده ، وعيّن سبحانه مصارف الفيء المذكورة لئلا يبقى الفيء متداولاً بين الرؤساء والأغنياء والأمراء ، يقسمونه فيما بينهم كما كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ، ولا يجعلون منه شيئاً للفقراء .. وختم الله الآية بالحث على تقواه والخوف منه ، وذكرنا بأنه شديد العقاب لمن خالف أمره أو ارتكب ما نهى عنه :

« مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ، وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٧) » .

(دولة) ملكاً متداولاً في الأيدي .

وقد خصص بعض المفسرين الآية في الفيء ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطى منه المهاجرين ومنع منه الأنصار ، ولفظها عام في كل الأوامر والنواهي.

ثم أخبر سبحانه عن الفقراء المستحقين لمال الفيء،وأوضح أنهم هم المهاجرون إلى المدينة يبتغون رزقاً من الله يعوضهم عما تخلوا عنه في ديارهم ويرجون رضوان الله ونصر دينه، وأثنى عليهم بقوله (أولئك هم الصادقون) أي هؤلاء هم الذين صدقت أقوالهم أفعالهم . قال تعالى :

« لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ (٨) » .

ثم أثنى سبحانه على الأنصار وهم الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين وسبقوا غيرهم بالإيمان ، وذكر من كريم أخلاقهم أنهم يحبون من هاجر إليهم من المسلمين ، ويواسونهم ولا يجدون في صدورهم على المهاجرين غيظاً ولا حسداً لما فضلهم الله به من المنزلة أو لما أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم دونهم من أموال من بني النضير ويقدمون حاجة المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم حاجة شديدة إلى ما يؤثرونهم به — ثم أخبر سبحانه أن من يرتفع بنفسه عن مجالات الشح ويتقيه بالبذل في وجوه الخير كما فعل الأنصار فهو في عداد المفلحين . وشح النفس هو البخل والطمع . قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ

(تبوءوا الدار) توطنوا المدينة . (حاجة) حزازة وحسداً .

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ ، فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٩) » .

ثم أخبر سبحانه عن التابعين وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ويتبعون سننهم ويسيرون على نهجهم ، أخبر أن ألسنتهم تلهج بالدعاء لسلفهم من المهاجرين والأنصار مقروناً بدعائهم لأنفسهم يسألون الله تعالى غفران ذنوبهم ، وأن لا يجعل في قلوبهم حقداً وبغضاً لمن سبقهم من المؤمنين وفي طليعتهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى :

«وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ».

وانتقلت الآيات بعد ذلك .. يخبر الله تعالى فيها عن عبد الله بن أبي وشيعته من المنافقين ، الذين أرسلوا لبني للنضير يغرونهم بالثبات على قتال المسلمين ، ويعدونهم بالنصر والمعونة ، وأنهم لن يسمعوا فيهم قول قائل ، ولن يطيعوا من يأمرهم بخذلانهم وقد أكذبهم الله تعالى على كل هذه الوجوه بل ذكر أنهم حتى لو قاتلوا معهم ونصروهم فلن يكون لهم النصر بل ستكتب عليهم الهزيمة ويولون الأدبار .. قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

(خصاصة) فقر واحتياج . (من يوق) من يجنب ويكف . (شح نفسه) بخلها مع الحرص .

فيكُمْ أَحَداً أَبداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ (١٢)».

ثم أخذ سبحانه يقوي عزيمة المسلمين في قتال خصومهم اليهود ، ويخبرهم أن لهم في قلوبهم خوفاً أكثر من خوفهم من الله ، وذلك الخوف من المخلوق أكثر من الخوف من الله باعثه أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى ، ولا يقدرونها حق قدرها .. قال تعالى :

« لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) » .

ثم أخذ يقص سبحانه بعض ما جُبل عليه اليهود من خصال الذم فأخبر أنهم جبناء لا يستطيعون منازلة المسلمين وجهاً لوجه ، بل يتهربون منهم ويلوذون بالقرى والحصون يتحصنون بها وينحصرون وراء الجدر من الخوف والهلع .. وأخبر أن العداء مستحكم بينهم ، يراهم الرائي مجتمعين فيظنهم مؤتلفين ، وهم في الواقع مختلفة قلوبهم أشد الاختلاف .. وهذا ما يسبب لهم الوهن ، ولكنهم لا يدركون ذلك .. قال تعالى :

« لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ

بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤) » .

ثم أخذ سبحانه يضرب المثل ليهود بني النضير في كفرهم وقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وإجلائهم ، بيهود بني قينقاع الذين ذاقوا عاقبة كفرهم حيث قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلاهم عن جواره ، ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب مؤلم في النار . قال تعالى :

« كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) » .

ثم ضرب للمنافقين مثلاً في تغريرهم بيهود بني النضير حيث وعدوهم بالنصر فلم يفعلوا : مثلهم الله بالشيطان حين يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه قائلاً : (إني أخاف الله رب العالمين) فكانت نهايتهما : الشيطان والإنسان الكافر ، الخلود في النار ؛ وهذا جزاء كل ظالم لنفسه بالكفر معاند للحق .. قال تعالى :

« كَمَثَلِ الشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا الظَّٰلِمِينَ (١٧) » .

(بأسهم بينهم) قتالهم فيما بينهم . (قلوبهم شتى) متفرقة لتعاديهم . (وبال أمرهم) سوء عاقبة كفرهم .

بعد ذلك أخذ سبحانه يوجه المؤمنين للعمل بتقواه ومحاسبة النفس ، وأخذ الأهبة ليوم الحساب ، والنظر فيما قدمته كل نفس من عمل صالح ترجو ثوابه ، أو عمل قبيح تخاف عقابه . وكرر سبحانه الأمر بتقواه في آية واحدة في أولها وآخرها ليؤكد ضرورة الأخذ بالتقوى كوسيلة من وسائل النجاة ، وهو سبحانه الخبير بأعمال عباده . قال تعالى :

« يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) » .

وحذّر سبحانه العباد أن يسلكوا مسلك المنحرفين عن سبيله الذين نسوا ذكر الله أو تركوا العمل بطاعته . فعاقبهم من جنس عملهم بأن أنساهم حظوظ أنفسهم التي تعود عليهم في الآخرة بالخير فلم يتقدموا بعمل صالح ، وهذا الصنف من الناس هم الخارجون عن أمر الله ، الماضون في معصيته .

« وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١٩) » .

ثم عقد سبحانه مقارنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وأخبر أنهم لا يستوون إذ الفارق بينهم جدّ عظيم . فأهل الجنة بالنعيم المقيم فائزون ؛ وعلى العكس منهم أهل النار . قال تعالى :

« لَا يَسْتَوِي أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ (٢٠) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك يؤنب الله فيها ابن آدم على قسوة قلبه وعدم

خشوعه عند سماع القرآن مع أن الجبل الأصم لو أنزل عليه القرآن ، وكان له فهم وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خشية الله وسماع كتابه ، فكيف بالبشر ؟ قال تعالى :

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ».

(والأمثال) إشارة إلى هذا المثل وغيره من الأمثال التي ضربها الله في مواضع كثيرة من كتابه لغرض تدبرها والتفكير فيما تهدف إليه .

وبعد أن أوضح سبحانه عظمة القرآن ، أردف ذلك بذكر جملة من أسمائه الحسنى ونعوت جلاله .. فذكر أنه المنفرد بالألوهية ، فكل المعبودات دونه باطلة ، وأنه يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوه .

وأنه صاحب الرحمة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيمهما .

ثم كرر سبحانه إثبات الألوهية له ليعبد وحده دون سواه ، ووصف نفسه بأنه الملك أي المطلق التصرف في ملكه وخلقه وأنه (القدوس) أي الطاهر المنزه عن كل عيب ونقص (السلام) الذي سلم من النقائص والعيوب (المؤمن) من الامن الذي أمّن عباده من عذابه (المهيمن) أي الشاهد الرقيب على خلقه (العزيز) الذي غلب كل شيء وقهره لعظمته (الجبار) من الإجبار ، أي الذي جبر خلقه وقهرهم على ما يشاء (المتكبر) أي صاحب الكبرياء حقاً المتعاظم عن كل سوء . ثم ختم ذلك بتنزيه نفسه سبحانه عما لا يليق به من شرك المشركين وافترائهم .

(خاشعاً) ذليلاً خاضعاً . (متصدعا) متشققاً .

واستأنف سبحانه ذكر أسمائه. فقال : (هو الله الخالق) أي المقدر لجميع الأشياء (البارىء) أي المنشىء لجميع الكائنات من العدم إلى الوجود (المصور) أي خالق الصور على الصفة والشكل الذي يريد .. وختم سبحانه السورة بقوله (له الأسماء الحسنى) أي الدالة على الصفات العُلا وأن كل من في السموات والأرض يسبّح له وهو (العزيز) في ملكه (الحكيم) في تدبيره وشرعه وقدره .

« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤) » .

(الملك) المالك لكل شيء . (القدوس) البليغ في النزاهة عن النقائص . (السلام) ذو السلامة من كل عيب . (المؤمن) المصدق لرسله بالمعجزات . (المهيمن) الرقيب على كل شيء . (العزيز) القوي الغالب . (الجبار) القاهر أو العظيم . (المتكبر) البليغ الكبرياء والعظمة . (البارىء) المبدع المخترع . (المصور) خالق الصور على ما يريد .

تفسير سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) ».

سبب نزول هذه الآيات أن حاطب بن أبي بلتعة حين عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ، كتب حاطب إلى قريش ، يخبرها بخبر الرسول . فأوحى الله إلى رسوله بما كان من أمر حاطب ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب الكتاب وهو في الطريق ، ثم سأل حاطباً عن صنيعه فاعتذر بأنه كان يريد بذلك يداً عند قريش لتحمي قرابته لديهم .

وقد حذّر الله سبحانه المؤمنين من موالاة أعدائه وأعداء دينه وجعلهم

(أولياء) أعواناً توادونهم وتناصحونهم .

أنصاراً يوصلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التي بينهم والصلات القديمة ، صلات القرابة — لأنهم كفروا بما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق وهو القرآن والتوحيد وضيّقوا عليه وعلى أصحابه الخناق حتى حملوهم على الهجرة وترك بلدهم ولم ينقموا عليهم إلا إيمانهم بالله وإخلاصهم العبادة له .

وقوله تعالى : (إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي) هذا شرط جوابه متقدم وهو قوله تعالى : (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) والتقدير (إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي — لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) والمعنى إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله تبتغون رضوان الله فلا تتخذوا أعداء الله وأعداءكم أولياء تكتبون لهم بأخبار الرسول ليأخذوا حذرهم وهو سبحانه المطلع على السرائر والضمائر ، يعلم ما يخفيه العباد وما يظهرونه علانية ، فمن يوال المشركين ويطلعهم على أسرار المؤمنين فقد أخطأ طريق الهدى .

وأخذ سبحانه في الآية التالية يحرك في نفوس المؤمنين عوامل البغض للمشركين ، مخبراً أنهم أي المشركين — لو ظفروا بالمسلمين لعاملوهم أسوأ معاملة تبدو فيها العداوة في أبشع صورة حيث يشبعونهم ضرباً ، ويستطيلون عليهم بالقتل بأيديهم والسباب والشتائم بألسنتهم ، وبودهم لو رجع المسلمون عن دينهم إلى الكفر . قال تعالى :

« إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) » .

(يثقفوكم) يظفروا بكم أو يصادفوكم . (يبسطوا إليكم) يمدوا إليكم .

وأخبر سبحانه أن هذه القرابة التي بين أظهر المشركين والتي أُفشِيَ من أجلها سر الرسول ، والأولاد لن يُغنوا عن أقربائهم الذين عصوا الله من أجلهم وسوف يفصل الله بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، ويحكم بينهم بعدله فيدخل المؤمنين الجنة ويعذب الكافرين في النار ، وهو سبحانه بصير بأعمال عباده . قال تعالى :

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير (٣) » .

ثم وجّه سبحانه عباده المؤمنين إلى أخذ القدوة من إبراهيم خليل الله ومن معه من المؤمنين حيث تبرءوا من قومهم المشركين ومن آلهتهم الباطلة التي يعبدونها من دون الله ، قائلين لهم (إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله) وكفروا بالآلهة وأعلنوا قولهم بالعداء قولاً واعتقاداً ما داموا مصرين على الكفر بالله . وقد استثنى سبحانه استغفار إبراهيم لأخيه وأخبر أن هذا الاستغفار من إبراهيم كان لوعد سبق من إبراهيم للاستغفار لأبيه فلا يصح الاقتداء به في هذا الاستغفار ؛ لأنه لا يجوز بحال أن يستغفر المؤمن للمشرك مهما كانت صلته به ، مع أن إبراهيم عندما ظهر له كفر أبيه بموته على الكفر ، تبرأ منه وانقطع عن الاستغفار له . وهذه البراءة لا يستقيم الدين بدونها ، إذ أن أوثق عرى الإيمان، الحب في الله ، والبغض في الله ، وقد اتجه إبراهيم ومن معه من المؤمنين حينما تبرءوا من قومهم ، اتجهوا إلى الله قائلين : (ربنا عليك توكلنا) أي في جميع أمورنا فلا تكلنا إلى غيرك (وإليك أنبنا) رجعنا إليك بالتوبة من ذنوبنا إلى ما تحب من الطاعة (وإليك المصير) أي مرجعنا ومعادنا إليك في الآخرة .

(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) أي لا تسلط علينا الكفار فيفتنونا

عن ديننا (واغفر لنا ، ربنا إنك العزيز الحكيم) أي اغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا فأنت الرب العزيز الذي لا يضام من لاذ به ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعاد سبحانه يؤكد ضرورة الأخذ بالقدوة بخليله إبراهيم وبمن معه من المؤمنين في البراءة من المشركين ويذكر أنه لا يأخذ نفسه بها إلا كل من يرجو ثواب الله ويخاف عقابه في الآخرة ، ومن يعرض عن الأخذ بها أو عن الإيمان فالله سبحانه هو الغني عن كل خلقه ، المحمود لأوليائه وأهل طاعته.

قال تعالى :

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ، إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللهِ مِن شَيْءٍ ، رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا ، رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٦) ».

(أسوة حسنة) قدوة حميدة . (برءاء منكم) أبرياء منكم . (إليك أنبنا) إليك رجعنا تائبين . (فتنة) مفتونين معذبين .

(لا أملك لك من الله من شيء) أي : لا أملك دفع عذابه عنك .

ثم فتح الله باب الأمل أمام المؤمنين إذ وعد سبحانه بهداية أقاربهم الذين عادوهم في الله ، وقد يكون في عدائهم مشقة عليهم ، وهو سبحانه قادر على تحويل القلوب وهدايتها ، غفور لمن تاب وأناب إليه من عباده ، رحيم بهم . وقد كان ذلك بعد فتح مكة ، حيث دخل الناس في دين الله أفواجاً ، فعادت المودة وانقلبت العداوة حباً في الله . قال تعالى :

« عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً » ـ أي من أقاربكم ـ « وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) » .

بعد ذلك انتقلت الآيات تبين من تجب معاداتهم من المشركين ومن جاءت الرخصة في مواصلتهم والإحسان إليهم مع بقائهم على الكفر . فالذين لم تسبق منهم مقاتلة المسلمين لعداء في الدين ، ولم يكرهوا المسلمين على الهجرة والخروج من ديارهم ، هؤلاء ليس من بأس في برهم والعدل فيهم بالإحسان والصلة . وأخبر سبحانه أنه يحب العادلين في أحكامهم وتصرفاتهم . أما الذين قاتلوا المسلمين على الدين ، وأكرهوهم على مغادرة وطنهم وتعاونوا على هذه المضارة والتضييق ، هؤلاء هم الذين تجب معاداتهم والبراءة منهم ، ومن يتولهم بعد هذا البيان ، فهو ظالم لنفسه عاصٍ لأمر ربه . قال تعالى :

« لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ

(تبروهم) تحسنوا إليهم .

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَـٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٩) ».

وبعد ذلك انتقلت الآيات .. يذكر فيها حكم النساء المؤمنات المهاجرات الفارات بدينهن من أزواجهن الكفار إلى المسلمين في دار الهجرة ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد كتب بينه وبين المشركين ، في صلح الحديبية ، أنه من جاء من المشركين مسلماً رده إليهم . وكان هذا الشرط بالنسبة للرجال نافذ المفعول . أما النساء فقد أمر الله المؤمنين بامتحانهنّ ، وذلك أن يُسألن أنهنّ ما هاجرن إلا حباً لله ولرسوله ، ورغبة في الانضمام إلى المسلمين . فإذا ظهر للمسلمين حقيقة إسلامهن ، فلا يرجعوهن إلى أزواجهن الكفار لأن المؤمنة لا تحل للكافر ، وعلى الإمام أو على الزوج الذي يتزوج المرأة المهاجرة أن يدفع الصداق الذي دفعه الزوج الكافر ، ذلك معنى قوله تعالى : (وآتوهم ما أنفقوا) وبعد دفع الصداق ، لا حرج في الزواج بالمرأة المهاجرة ، ثم نهى الله عن البقاء على نكاح المشركات فمن كانت له امرأة مشركة أمر بمفارقتها . وأمر سبحانه بمطالبة المشركين بصداق الزوجات الفارّات إليهن كما رخص للمشركين بنفس المطالبة لو هاجرت امرأة إلى المسلمين ، ثم أخبر سبحانه أن ما ذكره من الأحكام في هذه الآية هو حكم الله الذي

(تقسطوا إليهم) تقضوا إليهم بالقسط والعدل . (ظاهروا) عاونوا . (تولوهم) تتخذوهم أولياء .

حكم به بين خلقه ، وهو عليم بما يصلح عباده ، حكيم في تدبيره وأمره ونهيه وشرعه . قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إذا جَاءَكُمُ ٱلمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَاتٍ فامْتَحِنُوهُنَّ ٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ » — أي لكم الظاهر أما باطن أمرهنّ فالله وحده المطلع عليه — « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلكُفَّارِ ، لاَ هُنَّ حِل لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَءَاتُوهُمْ مَّا أَنْفَقُوا ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ » — العصَم جمع عصمة أي نكاح ، والكوافر جمع كافرة — « وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) » .

وقد امتثل المؤمنون ما أمروا به من دفع صداق المرأة المسلمة المهاجرة إلى زوجها الكافر ، ولكن المشركين لم يستجيبوا لهذا الحكم فأمر الله المؤمنين أن يدفعوا صداق المرأة المرتدة المنحازة إلى المشركين من الغنيمة لزوجها المسلم إذا قاتل المسلمون المشركين ، وأصابوا منهم غنيمة ، وأمرهم أن يراقبوا الله ويتقوه ولا يتجاوزوا ما أمروا به . قال تعالى :

(فامتحنوهن) فاختبروهن . (أجورهن) مهورهن . (بعصم الكوافر) بعقود نكاح المشركات .

« وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) » .

مصدقون بربوبيته وألوهيته وهيمنته عليكم .

وانتقلت الآيات بعد ذلك تذكر بيعة النساء وهي البيعة التي أمر الله رسوله أن يأخذها عليهن ، وكانت في ثاني يوم الفتح ، فتح مكة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعهن بالكلام لا تمس يده امرأة ، وكانت البيعة على الأمور الآتية : (أن لا يشركن بالله شيئاً لا حجراً ولا شجراً ، ولا قبراً ولا غير ذلك من معبودات الجاهلية (ولا يسرقن) سواء كانت السرقة بمعناها الحقيقي أو كانت اختلاساً تختلسه المرأة من مال زوجها (ولا يزنين) لا يرتكبن جريمة الزنى (ولا يقتلن أولادهن) كما كانت الجاهلية تفعل ذلك خشية الفقر في الأولاد عامة ، أو خشية العار في البنات خاصة ، ويشمل القتل قتل الجنين كما تفعله بعض النساء حيث تسقط الحمل بأي وسيلة من الوسائل (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) أي لا تنسب المرأة لزوجها ولداً ليس منه ، وكانت المرأة في الجاهلية تلتقط الولد وتقول لزوجها كذباً : هذا ولدي منك . وإنما قال (يفترينه بين أيديهن) الآية ؛ لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها — ومسلك خروج الولد بين رجليها (ولا يعصينك في معروف) أي لا يعصين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يأمرهن به من أحكام الشريعة ، ومن مخالفة عادات الجاهلية ، النياحة على الأموات وضرب الخدود وشق الجيوب عند نزول المصائب . فإذا أقررن بذلك كله أمر الرسول أن يأخذ

(فعاقبتم) فغزوتم فغنمتم منهم .

عليهن البيعـــة وأن يستغفر الله لهن ما فرط من الذنوب ، والله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وأناب كما جاء في الحديث : إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، أي يقطعه ويفصله ، قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ».

ثم ختم سبحانه السورة بما بدأها من النهي عن موالاة الكفار عموماً ، وفي مقدمتهم اليهود . فقد غضب الله عليهم ، وهم أي اليهود ، على قول من يرى من المفسرين أن الآية خاصة بهم قد يئسوا من ثواب الآخرة ، كما يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا في القبور من أن يكون لهم حظ وثواب في الآخرة . قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ (١٣) » .

(ببهتان) بإلصاق اللقطاء بالأزواج . (يفترينه) يختلقنه . (لا تتولوا) لا تتخذوا أولياء . (قوماً) هم اليهود .

تفسير سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) » .

استهل سبحانه هذه السورة كما استهل غيرها بالإخبار عن أن كل من في السموات والأرض يسبح له ، وأنه العزيز في ملكه ، الحكيم في تدبيره وشرعه وقدره . ثم عقب على ذلك بالإنكار على من يقول من المؤمنين قولاً لا يصدقه بالفعل ، وكرر الإنكار مخبراً عن مقته لمن يقول قولاً ثم لا يفي به ، قيل إن المؤمنين تمنوا جهاد الأعداء قبل أن يفرض الجهاد . فلما فرض نكل عنه بعضهم وشقّ عليهم أمره فكان ذلك سبب لومهم وإنكار الله عليهم ، وأخبر سبحانه بعد هذا الإنكار أنه يحب من عباده أن يتجهوا صفوفاً متراصة ملتصقة بعضها ببعض لقتل أعدائه .

بعد ذلك انتقلت الآيات يعزي الله فيها رسوله عن أذى قومه له ، ويذكر له خبر موسى مع قومه ، وإيذائهم له بصنوف من الأذى ، بما في ذلك

« سبح لله » نزهه ومجده تعالى . « كبر مقتاً » عظم بغضاً . « صفاً » صافين أنفسهم . « بنيان مرصوص » متلاصق محكم .

امتناعهم عن القتال معه ، واستنكر موسى سوء صنيعهم ، وقال : (يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) أي ومن حق الرسول أن يكرم؛ ثم حكى الله تعالى عاقبة أمرهم بقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أمالها عن الهدى واتباع الحق ، وأخبر أنه لن يهدي إلى الخير من سبق في علمه أنه فاسق . قال تعالى :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ، يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ (٥) » .

ثم عقب سبحانه بقصة عيسى مع بني إسرائيل ، وأبلغهم أنه مرسل من الله إليهم ، وأنه مصدق لما سبقه من كتب الله السماوية وخص منها التوراة ومبشراً أيضاً بنبوة رسول يأتي بعده اسمه أحمد ، فلما بعث أحمد الرسول ﷺ ، قابل الكفار هذه البعثة بالتكذيب ، وقالوا عن الحق الذي جاء به هذا سحر واضح قال تعالى :

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ».

ثم شنّع سبحانه على الكفار الجاحدين لرسالة الرسول محمد ﷺ ، الذين يزعمون أن ما جاء به من الحق والقرآن ما هو إلا سحر ،

وأخبر أنه ليس أظلم ممن يزعم ذلك ؛ في حين أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام . وأخبر سبحانه أنه لا يوفق إلى الهداية من ظلم وجحد . قال تعالى :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧) ».

وأخبر سبحانه أن هؤلاء الظلمة كان بودهم القضاء على الإسلام ، وهيهات أن يتم لهم ذلك ، ومثلهم في المحاولة كمن يحاول أن يطفىء نور الشمس بفمه ! وسوف ينصر الله دينه ويعلي كلمته ولو كره ذلك الكافرون ! فهو سبحانه الذي بعث رسوله محمداً بالدين الحق الذي ارتضاه لعباده ليعليه على سائر الأديان ولو كره ذلك المشركون . قال تعالى :

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩) ».

وانتقلت الآيات التالية توجه العباد إلى أحب الأعمال إلى الله ، وقد كانوا يسألون عن ذلك ، فذكر لهم أن الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته ؛ جعله الله بمنزلة التجارة يربحون فيها رضاء الله ونيل جنته وغفران الذنوب ، وذلك خير لهم من أية تجارة يربحون فيها ربحاً مادياً لا يلبث أن يزول . ثم وصف نعيمهم في الجنات فذكر أن لهم إقامة خالدة في جنات تجري

(نور الله) الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من تحتها الأنهار لهم فيها أطيب المساكن وأرفع الدرجات ، وذلك غاية الفوز لا فوز أعظم منه . وخصلة أخرى يحبها المؤمنون في حياتهم الدنيا قبل ثواب الآخرة وهي النصر على الأعداء ، والفتح العاجل إذا نازلوهم ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشر المؤمنين بالنصر والفتح في الدنيا إلى جانب فوزهم في الآخرة بدخول الجنان . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ».

وختم سبحانه السورة بحثّ المؤمنين على نصرة دين الله ومتابعة رسوله ؛ وضرب لهم المثل بالحواريين أتباع عيسى بن مريم حين استجابوا لنصرته لما طلب منهم النصرة لتبليغ الدعوة إلى الله ، وقالوا له نحن ننصرك ونعينك ، وتابعوه قولاً وفعلاً إلى أن رفعه الله إليه ؛ فافترقت فيه بنو إسرائيل إلى فرقتين فرقة آمنت به وأنه عبد الله ورسوله ، وفرقة كفرت وجحدت نبوته ورمته وأمه بالعظائم وهي فرقة اليهود ، فأيد الله المؤمنين منهم على الكافرين وقوّاهم فغلبوهم وأصبحوا منتصرين عليهم . وقيل إن ظهور المؤمنين منهم على الكافرين ؛ كان

ببعثة النبي ﷺ ، قال تعالى :

« يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ، مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ ، قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَٰهِرِينَ (١٤) ».

(الحواريين) أصفياء عيسى وخواصه . (ظاهرين) غالبين بالحجج والبينات .

تفسير سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢) » .

بدأ سبحانه هذه السورة كغيرها من السور ؛ بالإخبار بأن ما في السموات والأرض يسبح له . وأنه المالك لأمور عباده المتصرف فيهم (القدوس) أي المنزه عن النقائص المتصف بصفات الكمال وأنه (العزيز) الذي تذل لعظمته عزة كل عظيم (الحكيم) في أمره وتدبيره وقدره وشرعه. ثم امتن سبحانه على الأميين وهم العرب ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنة عامة على جميع العباد . ومع أنه كان أمياً كقومه ، إلا أنه كان يتلو عليهم آيات الله وهي القرآن ، ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ؛ ويعلمهم القرآن ، وأحكامه ويعلمهم الحكمة ، وهي السنة لأنها تفسر القرآن ، ويفقههم في الدين وإن كانوا

(يسبح لله) ينزهه ويمجده تعالى . (الملك) مالك الأشياء كلها . (القدوس) البليغ في النزاهة عن النقائص . (العزيز) القوي الغالب . (الأميين) العرب المعاصرين له صلى الله عليه وسلم . (يزكيهم) يطهرهم من أدناس الجاهلية .

قبل بعثة الرسول ﷺ في عماية وضلال واضح .

ثم أخبر سبحانه أن رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، لم تكن خاصة بالعرب بل هناك آخرون من غير العرب ، قيل هم أهل فارس ، وقيل غيرهم من سائر المسلمين لم يلحقوا بالمؤمنين السابقين وسوف يلحقون بهم فدين الإسلام خالد إلى قيام الساعة . وأخبر سبحانه أنه العزيز الذي لا يغالب ، الحكيم في تدبير مصالح عباده ، وتهيئة ما يسعدهم في دينهم ودنياهم . قال تعالى :

« وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) » .

وأشار سبحانه مرة ثانية إلى أن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثته ، كانتا فضلاً من الله عليه لاصطفائه للرسالة دون سائر البشر ؛ وفضلاً على العباد لهدايتهم ولئلا يلبثوا في حيرة وضلال . فهو سبحانه صاحب الفضل السابغ على جميع العباد . قال تعالى :

« ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٤) » .

ثم ضرب سبحانه المثل لليهود في أخذهم التوراة ، وعدم العمل بها ، ضرب لهم المثل بالحمار . . أبلد خلق الله ! حيث يحمل فوق ظهره كتباً لا ينتفع بما فيها وبئس هذا المثل يضرب لهم . ونبه سبحانه إلى أنه لا يهدي إلى الحق إلا من سبق في علمه هدايته فرداً كان أو جماعة . قال تعالى :

(آخرين منهم) من العرب . (لما يلحقوا بهم) لم يلحقوا بهم بعدُ وسيلحقون .

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَـٰتِ ٱللهِ ، وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ (٥) ».

وانتقلت الآيات بعد ذلك تناقش اليهود في زعمهم أنهم أولياء لله دون غيرهم كالرسول وصحبه تطالبهم بإبراز الدليل على ذلك ، وهو أن يدعوا على أنفسهم بالموت ؛ إن كانوا صادقين فيما ادّعوه لينتقلوا إلى الدار التي أعدها الله لأوليائه — وأخبر سبحانه أنهم لن يفعلوا ذلك بسبب ما قدموه من الكفر وتكذيبهم بالرسول ﷺ وتوعدهم بقوله (والله عليم بالظالمين) .

ثم أكد لهم أن الموت الذي يتهربون منه ، سوف ينزل بهم لا محالة وسوف يرجعون إلى الله الذي يعلم غيب السموات والأرض فيخبرهم بكل ما صنعوه ؛ ويجازيهم على كل ما اقترفوه ، وذلك وعيد شديد لهم . قال تعالى :

« قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَـاءُ لِلهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ (٦) وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّـهُ مُلَـٰقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ».

(حملوا التوراة) كلفوا العمل بما فيها . (يحمل أسفاراً) كتباً عظاماً ولا ينتفع بها .
(هادوا) تدينوا باليهودية .

ثم انتقلت الآيات تحث المؤمنين على صلاة الجمعة والسعي إلى سماع الخطبة والتذكير وترك البيع والشراء بعد الأذان الثاني للجمعة ، وأخبر سبحانه أن ذلك خير من التمادي في الاشتغال بأمور الدنيا ، وخير من التغافل عن الاستعداد للجمعة لمن كان يعرف ما هو أجدى عليه مما يصلح له . قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) » .

وبعد الفراغ من الجمعة ، رخص لهم في الانتشار في الأسواق وأمرهم بذكر الله والإكثار منه ، حتى مع الاشتغال بالبيع والشراء إذ في ذلك فلاح وصلاح لهم . قال تعالى :

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) » .

وختم سبحانه السورة بذكر حادثة وقعت من الصحابة أول الإسلام عاتبهم الله عليها بقوله :

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْواً ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ،

(ذروا البيع) اتركوه وتفرغوا لذكر الله . (فانتشروا) تفرقوا للتصرف في حوائجكم . (انفضوا إليها) تفرقوا عنك قاصدين إليها .

قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)».

والحادثة يرويها الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً . إذ قدمت عير — أي قافلة — تحمل طعاماً من دقيق وبر وزيت ، فابتدرها أصحاب النبي ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً ، أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً) وإلى آخر السورة . والمراد باللهو الطبل الذي كان يضرب إيذاناً بقدوم القافلة . فأمر الله رسوله أن يبلغ المنصرفين عنه أن ما عند الله من الثواب في الدار الآخرة، هو خير من التجارة التي انصرفوا إليها ؛ وخير من الطبول التي تقرع إيذاناً بها ؛ والله سبحانه وتعالى موجد الأرزاق ومسبب الأسباب ، وهو الكفيل بتيسير الرزق لمن توكل عليه ، وطلب الرزق في وقته منه .

تفسير سورة «المنافقون»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) » .

وأخبر سبحانه أن المنافقين يقولون ما لا يعتقدون . فإذا حضروا مجلس رسول الله ﷺ، شهدوا له بالرسالة والله يعلم أن ما شهدوا به حق لا مرية فيه ، لأنه مرسله ، وهو سبحانه يشهد على المنافقين بكذبهم ، لأن قلوبهم لا تؤيد ألسنتهم فيما شهدوا وأقروا به .

وأخذ سبحانه يعدد قبائحهم ويفضح أمرهم ، ويذكر أنهم جعلوا أيمانهم وحلفهم الكاذب وقاية لهم عن القتل والسبي ، واغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم ، فمنعوا الناس عن جهادهم أو عن الجهاد في سبيل الله وعن الإيمان بالرسول ﷺ ، بما يُلقونه سراً من الشبه ووسائل التنفير ، فساء صنيعهم وقبحت فعالهم . قال تعالى :

« اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) » الأيمان مفردها يمين .

ثم أخبر سبحانه أن الباعث لهم على سوء ما يعملونه هو إظهارهم الإيمان

« جنّة » وقاية لأنفسهم وأموالهم .

بألسنتهم واستبطانهم الكفر فجازاهم الله بالطبع على قلوبهم فلم يصل إليها الهدى ، ولم يعودوا يفقهون الحق . قال تعالى :

« ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) » .

ثم وجه سبحانه الأنظار إلى بعض صفاته الخلقية ، مخاطباً الرسول ﷺ قائلاً : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) لحسن منظرها (وإن يقولوا تسمع لقولهم) أي يصغي السامع إليهم ، لفصاحة ألسنتهم ، وبلاغة تعبيرهم. ولكنها أجساد بلا عقول يهتدون بها إلى الحق ، فهي كالخشب المسندة على الجدار . وذكر سبحانه من صفاتهم أنهم جُبلوا على الجبن بحيث لو سمعوا صوت مناد ينشد ضالة أو يعرّف لُقَطة ، لظنوا أنهم معنيون بهذا النداء .. أو أن الله أنزل في شأنهم شيئاً يهتك أستارهم.. ثم حذر الرسول ﷺ من معسول خطابهم ، ومما يخبئونه تحت ستار نفاقهم من الكيد للمسلمين ، فهم أعداء يجب الاحتراز منهم . قال تعالى :

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ، قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) » .

وفي قوله تعالى (قاتلهم الله أنى يؤفكون) دعاء عليهم يتضمن الذم

« فطبع » ختم . « لا يفقهون » لا يعرفون حقيقة الإيمان ، « خُشُبٌ مسنّدة » أجسام بلا أحلام . « أنى يؤفكون » كيف يصرفون عن الحق .

إذ كيف يصرفون عن الحق مع وضوحه – (فيؤفكون) بمعنى يصرفون .

ثم ذكر لهم مذمة أخرى ، وهي عطف رؤوسهم إعراضاً عما يُدْعَون إليه من الاعتذار لرسول الله ﷺ واستكباراً عن استغفاره لهم مما بدر منهم من نفاق . ولذلك أخبر سبحانه أن الاستغفار لهم مثل عدمه . فهو سبحانه لن يتجاوز عن أعمالهم الخبيثة، ولا يهدي من سبق في علمه أنه يموت على الفسق أي على الخروج عن طاعته . قال تعالى :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٦) » .

وأخبر سبحانه في الآية التالية عن تحريض عبد الله بن أُبيّ قومه على عدم الإحسان إلى من انضم إلى رسول الله ﷺ من المسلمين ، وعدم الإنفاق عليهم ، حتى إذا ما عضهم الجوع ، تركوا الرسول وانفضوا عنه ، فأرغم الله أنوف المنافقين وذكر لهم أن جميع ما في السموات والأرض له جل شأنه ، وأن بيده مفاتح أرزاق العباد وأنه لا يعطى أحد شيئاً إلا بمشيئة الله وتسخيره ، غير أن المنافقين لعدم يقينهم لا يدركون ذلك .

ثم ذكر سبحانه كلمة عبد الله بن أُبيّ ، وقد تشاجر رجل من قومه مع آخر من المهاجرين ، وكانوا في غزوة بني المصطلق مع رسول الله ﷺ . فقال (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل

« لوّوا رؤوسهم » عطفوها إعراضاً واستهزاءً .

يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ألا بئس ما قال وبئس من قال . ويزعم أنه إذا عاد من الغزو فسوف يخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المدينة ، ولكن الله بيّن له وللمنافقين لمن تكون العاقبة ولمن تكون العزة : (لله) الغلبة والقوة (ولرسوله) بإعلاء شأنه وإظهار دينه (وللمؤمنين) بنصر الله لهم على أعدائهم (ولكن المنافقين) أمثاله (لا يعلمون) ذلك .. قال تعالى :

« هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) » .

وختم سبحانه السورة بتوجيه العباد إلى أمرين تتم لهم بهما السعادة :

الأمر الأول : عدم الانصراف إلى جمع الأموال والشح بها في أوجه الخير ؛ والاشتغال بالأولاد والفرح بهم لدرجة تصرف عن ذكر الله وعبادته . وفي مقدمة ذلك الصلوات الخمس المكتوبة ؛ ومن ينصرف إلى ذلك ، فقد خسر تجارته ، لأنه قدّم دنياه على ما يصلح آخرته .

الأمر الثاني : الحض على الإنفاق في سبيل الله مما خوّل الله العباد فيه وفي طليعة ذلك إخراج الزكاة . ومن لم يفعل ذلك فسوف يندم ويتمنى

« حتى ينفضوا » كي يتفرقوا عنه صلى الله عليه وسلم . « الأعز » الأشد والأقوى ويعنون أنفسهم . « الأذل » الأضعف والأهون ويعنون المؤمنين . « ولله العزة » الغلبة والقهر .

الرجعة وقت الاحتضار وطول الأجـــل ليستدرك ما فاته ، ولن يؤخر الله أجل نفس إذا حان وقته . وهو سبحانه خبير بأعمال خلقه ؛ خيرها وشرها . قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَـــا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِـكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلاَ أَوْلَـٰدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِـــكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (٩) وَأَنْفِـقُوا مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللهُ نَفْـساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَـــا وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) » .

« لا تلهكم » لا تشغلكم .

تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) » .

أخبر سبحانه أن كل ما في السموات وكل ما في الأرض من كائن يسبح له ، وأنه صاحب السلطان المتصرف في كل الكائنات، المحمود على كل حال من السراء والضراء ؛ وعلى كل ما يخلقه ويقدره ؛ وهو القادر على كل شيء .. فلا يعجزه شيء .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق العباد ، منهم المؤمن ومنهم الكافر. وبما أنه قد أراد ذلك لحكمة يعلمها ، فلا مناص من وجود المؤمن والكافر في الخلق . وهو سبحانه (بصير) بأعمال العباد ، وبمن يستحق الهداية ومن يستحق الضلال .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ، وأقامها بعدله وجعل بني آدم في أحسن شكل ، وأبهى صورة ، ثم يكون مرجع العباد إليه في الآخرة وأخبر أيضاً عن سعة علمه وإحاطته بكل ما يجري وما يكون في السموات والأرض ، وبما يكنه العباد في نفوسهم وما يبدونه علانية ، فهو العليم بدخائل الصدور . قال تعالى :

« يسبح لله » ينزهه ويمجده تعالى . « له الملك » التصرف المطلق في كل شيء .

« خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) » .

ثم انتقلت الآيات يوجه الله فيها الخطاب لكفار مكة ، والخطاب يعمّ كل كافر ؛ يخبرهم فيها بما نزل على الأمم الكافرة المكذبة قبلهم من العذاب بسبب تكذيبهم واستبعادهم أن تكون الرسالة في البشر ، وأن تكون هدايتهم إلى الحق على يد بشر مثلهم (فأذاقهم الله وبال أمرهم) أي عقوبته في الدنيا(ولهم عذاب أليم) في الآخرة فقد جاءتهم آياته البينات حججاً وبراهين ومعجزات فكذبوا بالرسل وأعرضوا عما جاءوا به من الإيمان والعمل واستغنى الله عن إيمانهم وهو الغني عن خلقه المحمود في فعله . قال تعالى :

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) »

ثم انتقلت الآيات في الرد على زعم الكفار والملحدين والمكذبين بالبعث بقولهم إنهم (لن يبعثوا) أي لن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد الموت فامر رسوله ﷺ أن يقسم لهم على ذلك وهو المعروف بالصدق عندهم ، وأمره أن

« فأحسن صوركم » أتقنها وأحكمها . « وبال أمرهم » سوء عاقبة كفرهم . « تولوا » أعرضوا عن الإيمان بالرسل .

يؤكد لهم ويزيدهم أنهم سينبئون بما عملوا وليس أيسر من ذلك عند الله . قال تعالى :

« زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧) » .

ثم أمر العباد سبحانه بالتصديق بربوبيته وألوهيته . والتصديق برسالة رسوله ، وبالقرآن الذي أنزله الله عليه وعبر عنه بأنه (النور) وأخبر عنه أنه لا تخفى عليه خافية من أمور عباده . وذلك ما يحفز إلى صدق الإيمان .. قال تعالى :

« فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ ٱلَّذِي أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) » .

وبعد أن وجه سبحانه الأنظار للبعث ، ذكّر العباد باليوم الذي يقع فيه الجزاء والحساب . وهو يوم القيامة .. سماه في هذه الآية (يوم الجمع) لأنه سبحانه يجمع فيه الأولين والآخرين وهو أيضاً يوم التغابن ، من الغبن . ذلك لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار بأخذ منازلهم وأهليهم فيها ، ولو آمنوا لظفروا بالنعيم بدل الجحيم . ثم أوضح هذا التغابن . حيث شرح حال المؤمنين في الآخرة ، وهم الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة التي يكفّر الله بها عنهم السيئات وينزلهم في الجنة منازل تجري من تحتها الأنهار يعيشون فيها مخلدين إلى الأبد .. لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها وليس أعظم فوزاً من هذا النعيم وعلى عكسهم الكفار المكذبون بآيات الله ورسله.

(النور) القرآن .

ينزلهم الله النار يعيشون فيها مخلدين . وبئست النار من مصير . قال تعالى :

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٠) » .

ثم أخبر سبحانه عن قدَره النافذ فأكد أنه لا يصيب أحداً من خلقه إلا بإرادته ، وأن من يصدق من عباده بذلك يوفقه لليقين. فيرضى ويسلم، ويحتسب الأجر عند الله وهو سبحانه عليم بكل ما يجري في الكون من أقداره .. قال تعالى :

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) » .

وعاد سبحانه يؤكد الأمر بطاعته وطاعة رسوله، في كل ما يأمر به أو ينهي عنه ، ويخبر أن من يعرض عن طاعتها فليس على الرسول في ذلك شيء ، فقد أدى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، وهذه مهمته .

(ليوم الجمع) ليوم القيامة حيث تجتمع الخلائق للحساب . (يوم التغابن) يظهر فيه غبن الكافر بتركه الايمان وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان . (بإذن الله) بإرادته وقضائه .

ثم أخبر سبحانه عن كمال ألوهيته ، وأنـه لا يستحق العبادة غيره ، ومن العبادة صدق التوكل عليه ، وتعلق القلب به ، فأمر عباده المؤمنين بالاتجاه إليه ، والاعتماد عليه ، في كل شأن من شؤونهم . قال تعالى :

« وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٢) ٱللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٣) » .

ثم حذر سبحانه من طاعة الأزواج والأولاد وأخبر أن منهم أعـداء بمعنى أن المرء يشتغل بهم عن العمل الصالح وقد يورطونه في الإثم ، والمرء بغريزتـه منساق إلى رغبتهم . ولذلك حذّر من الاستجابة لهم فيما يضر بالمصلحة الدينية . ولكنه مع ذلك رغب في العفو والصفح عنهم ، وعدم معاقبتهم على ما قـد يتسببون فيه من الصد عن الخير .

ثم نوه سبحانه عن غريزة حب المال والولد ، وأنها فتنة أي بلاء واختبار ، يشغلان عن الآخرة ، وأن ما عند الله في الآخرة من النعيم المقيم والثواب العظيم ، هو خير من محبة المال والولد ، فيجب أن لا يشتغل بهما العباد ، لدرجـة تفوّت عليهم ذلك النعيم المقيم ، والخير العظيم . قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَـدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ . وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) » .

وختم سبحانه السورة بجملة توجيهات لعباده تجتمع فيها السعادة بحذافيرها .

أولها : الأمر بتقوى الله على قدر الاستطاعة ، وقد أوضح ذلك رسوله ﷺ بقوله : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وثانيها : السمع والطاعة لأوامر الله ورسوله .

وثالثها : الأمر بالإنفاق في وجوه الخير ، لأن الإنفاق خير للمنفق من الإمساك وأكد ذلك بما ختم به الآية من أن الذي يباعد بينه الله وبين شح النفس وبخلها فقد أصبح في عداد الفائزين . قال تعالى :

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) » .

ومرة ثانية ، عاد سبحانه يرغّب في الإنفاق في سبيله ، ويعد عليه بمضاعفة الأجر ، ونزّله منزلة القرض ، ووعد عليه أيضاً بغفران الذنوب . وهو سبحانه الشكور الذي يجزي على القليل بالكثير . الحليم الذي لا يعجّل بعقوبة المذنب . يعلم ما غاب وخفي من سرائر القلوب ؛ وما ظهر ووضح من

(فتنة) بلاء ومحنة واختبار . (يوق شحّ نفسه) يُكَفَّ بخلها مع حرصها .

أعمال العبـــاد - وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في تدبيره وشرعـه وقدره .
قال تعالى :

« إِنْ تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨) » .

(قرضاً حسناً) احتساباً بطيبة نفس .

تفسير سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، وَأَحْصُوا العِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً (١) ».

استهل سبحانه السورة بحكم من الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية ، ووجه الخطاب في ذلك للرسول ﷺ ، وهو عام للأمة ، فأمر سبحانه الرجل إذا أراد تطليق زوجته ، أن يطلقها في طهر لم يقربها فيه ، لتبدأ منه العدة. وذلك معنى قوله تعالى (لعدتهن) أي مستقبلات لعدتهن وأمر بإحصاء العدة أي معرفة ابتدائها وانتهائها ، لتحل بعدها المرأة للأزواج .

وأمر بتقواه سبحانه ، بعدم إخراج المعتدة من بيت سكناها . وهي

(فطلقوهن لعدتهن) مستقبلات لعدتهن . (احصوا العدة) اضبطوها وأكملوها . (بفاحشة مبيّنة) بمعصية ظاهرة « الخروج في العدة » .

أيضاً لا يجوز لها أن تخرج ما دامت في عدة الزواج إلا إن أتت بفاحشة مبينة ؛ وهي الزنا . أو سوء أخلاقها بحيث تؤذي أهل الزوج بلسانها أو فعالها . وأخبر سبحانه أن ما ذكره من هذه الأحكام ، هي حدود حدّها الله لعباده ، لا يجوز تجاوزها ، ومن يجترىء على تجاوز حدود الله فقد جنى على نفسه . ثم أوضح سبحانه العلة في استبقاء المعتدة في بيت سكناها . فقال : (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) أي بعد الطلاق قد يتغير رأي الرجل ، ويحدث الله في قلبه رغبة لمراجعتها . فتكون المراجعة وهي في بيته أيسر . ومن هذه الآية أخذ الأئمة أن السكنى لا تجب للمطلقة المبتوتة ، وإنما هي للمطلقة الرجعية .

ثم أوضح سبحانه ما يجب أن يفعله المطلق إذا قاربت المعتدة نهاية العدة فأمره أن يراجعها ويعاشرها بالمعروف ، أو يتركها حتى تكمل عدتها ، ويتم بذلك فراقها . وأمر بالإرشاد على كل من الرجعة والطلاق، وبأن يقتصر الإشهاد على شاهدي عدل من المسلمين . وأمر الشهود بأداء الشهادة على وجهها دون ميل أو غرض ، تقرباً بها إلى الله .

ثم أشار سبحانه إلى ما تقدم من الأحكام بقوله (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) أي إنما يأتمر بهذه الأحكام ويستجيب لأمر الله فيها المؤمن المصدق بأنها شرع من عند الله المصدق بيوم الجزاء .

ثم رغب سبحانه في تقواه ، فقال (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) أي من يخشَ الله في كل أقواله وأفعاله، بما فيها اتباع الأحكام التي أنزلها الله في الطلاق والرجعة والإشهاد ، يهيىء له مخرجاً من كل ضيق ، ورزقاً من جهة لا تخطر له على بال . كما رغب سبحانه في الاعتماد عليه بقوله : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي من يعتمد على الله في كل أموره يكفه ما أهمه فـ (حسبه) أي كافيه .

ثم وجه العباد أيضاً إلى التسليم بقضائه قائلاً : (إن الله بالغ أمره) أي

منفذ قضاءه على ما يريد وأنه سبحانه قد جعل لكل من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه . قال تعالى :

« فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك إلى عدة المرأة الآيسة ، وهي التي انقطع عنها الحيض لكبر سنها وعدة الصغيرة التي لم تبلغ سن الحيض ، والمرأة الحامل سواء كانت مطلقة أو مات زوجها . أما المرأة الآيسة فعدتها ثلاثة أشهر (إن ارتبتم) أي إن شككتم ومثلها الصغيرة التي لم تحض ، وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل . وحث عباده بعد ذلك على تقواه فيما شرعه لهم ووعدهم على ذلك بتسهيل أمورهم كلها وتيسيرها عليهم . قال تعالى :

« وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ».

(فهو حسبه) فهو كافيه . (قدراً) أجلا ينتهي إليه أو تقديراً . (يئسن) انقطع رجاؤهن . (ارتبتم) جهلتم مقدار عدتهن . (يسراً) تيسيراً وفرجاً .

ثم عظم من شأن هذه الأحكام ونسبها إلى نفسه وذكر أنه أنزلها إلينا وذلك معروف بالضرورة ثم عاد إلى تذكيرنا بالتقوى وبالمثوبة عليها بتكفير السيئات وإعظام الأجر . قال تعالى :

« ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ، وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (٥) ».

وانتقلت الآيات لبيان ما يجب للمعتدات من السكن والنفقة على الأزواج ، فأمر بإسكانهن حيث يسكن ذوو الشأن في ذلك كل بقدر طاقته وبقدر سعته فقيراً كان أو غنياً مع ملاحظة التقوى وبذلك لا يضارَرْن ولا يؤذين بأي نوع من الأذى ليخرجن من السكن الذي أعدّ لهنّ . ثم بيّن حكم هؤلاء النساء إن كن حاملات فذكر أن لهن النفقة والسكنى إن كان الطلاق مبتوتاً حتى يضعن الحمل . أما إذا كان الطلاق رجعياً فإن المطلقة تستحق النفقة ، وإن لم تكن حاملاً . وبعد الولادة لا شأن للأم بالإرضاع ، فإن رغبت أن ترضع الولد استحقت على ذلك أجر مرضعة . وأمر سبحانه الآباء وأزواج المطلقات بالتشاور في موضوع الأجرة ، والتراضي عليها ، والتسامح في طلبها من الأم ، وعدم الشح في دفعها من الأب ، فإن اشتطت الأم في طلب الأجرة ، وطلبت أجراً زائداً ، وامتنعت عن الإرضاع ، أو شحّ الأب بدفع الأجرة ، فليس للأب إكراهها بل يستأجر مرضعة أخرى ، ولينفق الآباء على أولادهم بقدر سعة رزقهم . فصاحب الغنى ينفق على قدر غناه . ومن ضيق عليه في الرزق فلينفق مما أعطاه الله . والله لا يكلف بذل النفقة على الأولاد إلا بقدر المال والرزق الذي جعله للولد ، وسوف يجعل الله بعد العسر والشدة غنى وسعة في الرزق . قال تعالى :

« أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ، وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ . وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ».

وانتقلت الآيات بعد ذلك من أحكام الطلاق وما يتعلق به إلى الإخبار عن عاقبة الطغيان والتجبر ؛ وأنه عندما حدث من بعض الأمم السابقة وتمردت وعصت أوامر الله ، ولم تستجب لرسله ؛ حاسبها الله بعملها في الدنيا حساباً شديداً ، وذلك بأن استقصى كل أعمالها ، وعاقبها عليها في الآخرة بالعذاب المنكر الفظيع ؛ فنالت بالعذاب جزاء عتوها وتمردها وكانت عاقبة الطغيان الخسارة والهلاك . قال تعالى :

« وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ » – أي كثيراً من أهل قرية – « عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ، فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ».

(وُجدِكُمْ) وسعكم وطاقتكم . (وأتمروا بينكم) تشاوروا في الأجرة والإرضاع . (تعاسرتم) تشاححتم فيها . (ذو سعة) غنيّ وطاقة . (قدر عليه) ضيّق عليه . (كأيِّنْ من قرية) كثير من أهل قرية . (عتت) تجبّرت وتكبّرت وأعرَضتْ . (عذاباً نكراً) منكراً شنيعاً . (وبال أمرها) سوء عاقبة عتوها . (خسراً) خسراناً وهلاكاً .

ثم عاد الله إلى إجمال ما فصله ليأمر عباده ذوي العقول باتقائه للمرة السادسة وبدأ ذلك بذكر ما هيأه من العذاب لمن خالف أوامره .

ثم كرر سبحانه الأمر لعباده المؤمنين في الأخذ بتقوى الله وخاطبهم بقوله (يا أولي الألباب) أي يا أصحاب العقول السليمة وأبلغهم أنه قد أنزل إليهم ذكراً هو القرآن ؛ وأرسل إليهم رسولاً يقرأه عليهم موضحاً ما فيه من الحلال والحرام والأحكام يخرج به من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان كل من كتب الله له الهداية فآمن بالله وعمل أعمالاً صالحة ترضيه .

ثم رغّب سبحانه في الإيمان والعمل الصالح ، ووعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات دخول جنات وصفها بأن الأنهار تجري من تحتها ، وهم فيها مخلدون أبداً ، لا يموتون ولا يهرمون ، وقد وسع لهم فيها الرزق فهم في نعيم لا ينفد ومتعة لا تزول . قال تعالى :

« أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا . فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ، قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) » .

« ذكراً » قرآناً . « رسولاً » محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله رسولاً .

وختم سبحانه السورة بتوجيه الأنظـــار إلى عظيم قدرتـه حيث أوضح أنه خلق السموات سبعاً ، وخلق الأرض مثل ذلك ؛ وأنـــه ينزل الوحي وما يريده من عجيب تدبيره ، وما يمضيه من قضائه وقدره بـــين السموات والأرض ، وفي ذلك إثبات صفات العلو لله جل جلاله كما فيه دليل واضح على عظم قدرته ليعلم العباد أن من قدر على هذا الخلق العظيم فهو قادر على كل شيء أراده لا يعجزه شيء لأنه محيط بكل شيء .. قال تعالى :

« ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢) » .

« يتنزل الأمر » يجري قضاؤه وقدره ، أو تدبيره .

تفسير سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

« يٰأَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ، وَٱللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ ٱللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمٰنِكُمْ وَٱللهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) » .

قيل في سبب نزول هـــذه الآية ، كما ثبت في صحيح مسلم ، أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عنـــد زينب ويشرب عندهـــا عسلا — فتواطأت حفصة وعائشة على أن تقولا له إذا دخـل عليهما إني أجد ريح مغافير — والمغافير : بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة . فدخل على حفصة ، فقالت له ذلك . فقال لها شربت عسلا عند زينب ، ولن أعود . وحرم على نفسه شرب العسل ، واستكتمها ذلك . ثم أخبرت حفصة عائشة بما كان ، فأنزل الله هذه الآية — وقيل في سبب النزول غير ذلك .

وفي الآية عتاب للنبي ﷺ في تحريمه ما أُحل له يريد بذلك رضاء زوجاته ، ولم يؤاخذه الله على ذلك ، بل غفر له وهو سبحانه الغفور الرحيم لجميع عباده . ومن رحمته بهم شرع لهم الكفارة في الأيمان ليحل بها المرء عما كان قد عقد النية عليه من فعل شيء أو تركه . وهو سبحانه المولى الذي يتولى أمور عباده، العليم

« ما أحل الله لك » شرب العسل . « تبتغي » تطلب . « تحلة أيمانكم » تحليلهـــا بالكفارة . « الله مولاكم » ناصركم ومتولي أموركم .

بما يصلحهم ، الحكيم في كل ما يشرعه لهم من الأحكام .

ثم أخذت الآيات تفصل القصة ، فذكر سبحانه أن رسول الله ﷺ أسرّ إلى إحدى زوجاته حديثاً ، وهو في قوله لها : « شربت عسلاً عند زينب وان أعود فلا تخبري بذلك أحداً » ولم تكتم الزوجة هذا الحديث بل أخبرت زوجاً أخرى ظناً منها أن ليس في ذلك حرج ، وقد اختلف المفسرون في هذا الحديث وفي تحديده وتعيينه ، ولا جناح في عدم الجزم به ، ولا في عدم تعيينه ، وقد أطلع الله رسوله (وأظهره) على ما كان من أمر زوجه وإفشائها للحديث الذي استكتمها إياه . فعاتبها وأخبرها ببعض ما أخبرت به ، وترك إخبارها عن البعض الآخر ، فسألته عن المخبر له بذلك. قال : أخبرني ربي العليم ببواطن الأمور ، الخبير بخفايا الصدور . قال تعالى :

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً . فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَـٰذَا : قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) » .

ثم وجه سبحانه الخطاب لزوجتي الرسول ﷺ المتواطئتين عليه — حفصة وعائشة — رضي الله عنهما ، وجه لهما الخطاب حاثاً إياهما على التوبة مما كان منهما ، لميل قلوبهما عن الصواب وصدور ما يستوجب التوبة . وهو معنى قوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) أي مالت عن الحق أما إن (تظاهرا) وأصلها تتظاهرا أي تستمرا في تواطئكما وتعاونكما على ما يسوء رسول الله ﷺ ؛ فلن يضره ذلك — فالله سبحانه (مولاه) أي وليه وناصره ، وكذلك جبريل

« نبأت به » أخبرت به . « أظهره الله عليه » أطلعه الله تعالى عليه .

وصالح المؤمنين هم أولياؤه وكذلك الملائكة بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين أولياء له ينصرونه فـ (ظهير) بمعنى معين . والمراد بصالح المؤمنين من سلموا من النفاق وأخلصوا النية والعمل . قال تعالى :

« إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ».

وأخبر سبحانه أن النبي ﷺ لو بدا له أن يطلق زوجاته لأبدله الله بزوجات خير منهن وصفهن بقوله (مسلمات) خاضعات لله بالطاعة (مؤمنات) مصدقات بتوحيد الله (قانتات) طائعات مصليات (تائبات) تاركات للذنوب مكثرات للتوبة (عابدات) كثيرات العبادة (سائحات) أي صائمات أو مهاجرات (ثيبات وأبكاراً) أي منهن الثيب وهي التي قد تزوجت ، وفيهن البكر . قال الله تعالى :

« عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ ، قَانِتَاتٍ ، تَائِبَاتٍ ، عَابِدَاتٍ ، سَائِحَاتٍ ، ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً (٥) ».

« صغت قلوبكما » مالت عن حقه صلى الله عليه وسلم عليكما . « تظاهرا عليه » تتعاونا عليه بما يسوءه . « هو مولاه » وليه وناصره . « ظهير » فوج معين له. « قانتات » مطيعات خاضعات لله . « سائحات » مهاجرات أو صائمات .

ثم وجه سبحانه الخطاب للمؤمنين يأمرهم بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم عذاب نار الآخرة ؛ وذلك بأن يأمروهم بالخير والطاعة ، وينهوهم عن الشر والمعصية.. وأخبر سبحانه أن نار الآخرة تختلف عن نار الدنيا في شدتها وتسعرها واتقادها بالآدميين والحجارة . قيل المراد بالحجارة الأصنام التي كانت تعبد من دون الله ، ففي ذلك تحقير لها ولعابديها .

ووصف سبحانه خزنة النار بأنهم فظاظ على أهلها في القوة والشدة يأتمرون بأمر الله وينفذون ما يأمرهم به ، وهم قادرون عليه ، لا يعجزهم . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ، وَقُودُهَا النَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَٰئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ . لاَّ يَعْصُونَ ٱللهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) » .

ثم اتجه الخطاب للكفار ييئسهم من النجاة يوم القيامة ، ومن قبول اعتذاراتهم عن تفريطهم . وليس لهم في ذلك اليوم إلا الجزاء على ما عملوا في الدنيا . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) » .

وعاد الخطاب ثانية للمؤمنين يأمرهم الله تعالى بأن يتوبوا إليه توبة نصوحاً ... أي توبة يقطعون بها الصلة عن ماضي الآثام ، ويعقدون العزم على عدم العودة لتتبع خطوات الشيطان . ووعدهم على ذلك بتكفير السيئات ،

« قوا أنفسكم » جنبوها. «غلاظ شداد » قساة أقوياء وهم الزبانية.

ودخول جنات وصفها بأن الأنهار تجري من تحتها .. ذلك اليوم الذي لا يخزي الله فيه النبي والمؤمنين معه ، كما أخزى الكافرين بدخول النـار ، بل يجعل لهم نوراً يسعى أمامهم على الصراط ، وهم يدعون الله تعـالى أن لا يذهب بنورهم ، وأن يتمه عليهم ، وأن يغفر لهم ذنوبهم . قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ».

ثم وجه سبحانه الخطاب الرسول ﷺ يأمره بقتال الكفار ، وإقامة الحدود على المنافقين ، ويشتد عليهم في ذلك ، وتلك عقوبتهم في الدنيا . أما في الآخرة فمسكنهم النار وبئست النار من مصير يرجعون إليه . قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٩) ».

ثم ضرب الله المثـل للكافرين ، في مخالطتهم للمسلمين ومعاشرتهم لهـم ، بامرأة نوح وامرأة لوط ، حيث كانتا مرتبطتين بعقد الزوجية مع رسولين من رسل الله ، فلم يغن عنهما هـذا الرباط شيئاً لعدم إيمانهما وانحيازهما في الكفر

« توبة نصوحاً » خالصة أو صادقة . « لا يخزي الله النبي » لا يذله بل يعزه ويكرمه .
« أغلظ عليهم » شدد أو أقسى عليهم .

لقومهما ، وهو المراد بالخيانة المذكورة في الآية ، وسيدخلان النـــار مع من يدخلهـــا من أهلها . فمعاشرة المؤمنين دون اعتقاد ما يعتقدونه من الإيمـان لا تجدي شيئاً .

وضرب الله المثل للمؤمنين في اختلاطهم بالكافرين لو دعت لذلك الضرورة والحاجة ، بامرأة فرعون المؤمنة ؛ لم يضرها عشرتها لفرعون وهو أشد أهل الأرض كفراً وعتواً ، لمـــا تبرأت منه ، ومن مسلكه ، وسألت الله أن يهبها بيتاً في الجنة دار الكرامة ، وينجيها من شرور فرعون ، وتبعة أعمــاله الخبيثة ، ومن عامـــة الظلمة أتباع فرعون . وكذلك المؤمنون إذا تقدموا بالبراءة من الكفار ومما يعبدون من دون الله لا تضرهم مخالطتهم وتبادل المنافع معهم . قال تعالى :

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ؛ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١١) » .

ومثل آخر ضربه الله للمؤمنين في خلطتهم بالكافرين ، وهو مثل مريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا ، حيث اصطفاها الله على نساء العالمين ، وهي من

(فلم يغنيا عنهما) فلم يدفعا ولم يمنعا عنهما .

نسل هارون أخي موسى عليهما السلام كان أكثر قومها كفاراً ، فلم يضرها ذلك حين صدقت بشرائع الله المنزلة بكلماته وصدقت بكتبه التي أنزلها على رسله ، وكانت مطيعة لله ومن أصل قوم مطيعين لربهم وامتدحها الله بإحصانها لفرجها وصيانتها له فأكرمها بحمل عيسى كلمة الله دون أن يمسها بشر ، بل بنفخة جبريل في جيب درعها وكان هذا الحمل خارقة من الخوارق ، دل على قدرة الله العظيمة لخرق السنن . قال تعالى :

« وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ (١٢) ».

(أحصنت فرجها) عفت وصانته من الرجال . (من روحنا) روحاً من خلقنا « عيسى عليه السلام » .

تفسير سورة الملك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (١) » .

يمجد الله تعالى نفسه وينزهها عن أن يكون له شبيه أو مثيـل . فهو الذي بيده ملك السموات والأرض المتصرف في جميع مخلوقاته لا يُسأل عما يفعل ، وهو على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء... ويستفاد من الآية إثبات صفة اليد لله سبحانه ، وهي يد تليق بجلال الله وعظمته ، فكما أن له ذاتاً لا تشبه الذوات ، فكذلك له يد لا تشبه الأيدي .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق الموت والحياة . قال ابن عباس أي الموت في الدنيا والحياة في الآخرة ، وقيل أوجد الخلائق من العدم ثم يميتهم بعد هذا الإيجـاد ، ثم يحييهم للبعث والجزاء في الآخرة ، وأوجدهم في الدنيا ليختبرهم أيهم يحسن العمل ويكون أكثر طاعة لله من غيره فيجزي كلاً بما اكتسب . وهو العزيز في انتقامه ممن عصاه ، الغفور لمن تاب إليه وأناب . قال تعالى :

« ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ، وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ (٢) » .

(تبارك الذي ..) تعالى ، أو كثر خيره وإنعامه . (بيده الملك) الأمر والنهي والسلطان . (خلق الموت) أوجده ، أو قدره أزلاً . (ليبلوكم) ليختبركم . (أحسن عملا) أصوبه وأخلصه .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق السموات عُلوية في غاية الإتقان بعضها فوق بعض ، ليس فيهن خلل أو عيب أو اختلاف وتنافر ، ووجه أنظار العباد لينظروا إلى هذا الصنع العجيب : هل يرى الرائي فيه شقوقاً أو صدوعاً وليُرجع النظرة بعد الأخرى في السماء باحثاً منقباً عن الخلل والعيب فسوف يرجع بصره خائباً صاغراً متحسراً لأنه لم يدرك ما طلبه من الخلل والنقص .. قال تعالى :

« ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) » .

وبعد أن نفى سبحانه وجود النقص في خلق السموات أخبر أنه زيَّن السماء الدنيا وهي القريبة بالنسبة لسكان الأرض بالمصابيح وهي النجوم وجعل منها شهباً ترمى بها الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء . قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، وأعد للشياطين علاوة على رميهم بالشهب في الدنيا عذاب النار في الآخرة.. قال تعالى :

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) » .

« طباقاً » كل سماء مقبية على الأخرى . « تفاوت » اختلاف وعدم تناسب . « فطور » شقوق وصدوع ؛ أو خلل . « كرتين » رجعتين رجعة بعد أخرى . « خاسئاً » صاغراً لعدم وجدان الفطور . « هو حسير » كليل من كثرة المراجعة . « بمصابيح » بكواكب مضيئة . « رجوماً للشياطين » بانقضاض الشهب منها عليهم.

وكما أعدّ سبحانه عذاب النار للشياطين ، أعده أيضاً للكافرين الذين كذبوا رسله ولم يؤمنوا به جزاء كفرهم وتكذيبهم ، وبئست النار من مآل ومنقلب يرجع إليها الكافرون — ثم وصف سبحانه حال الكفار في دخولهم النـــار وتعذيبهم بها وتبكيت خزنتها لهم فذكر أنها تسعر بهم ويُسمع لغليانها صوت منكر هو الشهيق الذي يُسمع من الحمار أو نهقه ؛ وتغلي بهم غليان القِدر حتى لكأنها يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها عليهم . ويقول لهم خزنتها تبكيتاً لهم وتقريعاً ولإقامة الحجة عليهم : ألم يبعث الله فيكم رسلاً تنذركم من عذاب الله ؟ وعندئذ يعترفون بالواقع وأن الله تعالى بعث فيهم رسلاً فكذبوهم وجحدوا مـــا أنزل الله عليهم من الدين والبشارة بوعد الله والإنذار بوعيده فيرد عليهم خزنة النار بقولهم : إنكم كنتم في ضلال بالغ أقصى الحدود .. قال تعالى :

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) » .

ثم أخبر سبحانه باعتراف الكفار بجرمهم وأنهم يقولون عند معاينة العذاب: لو كنا نسمع ما جاءتنا به الرسل في الدنيا من الهدى ونعقله ونعمل به ما غدونا اليوم في أهل النار . واعترافهم هذا بعد معاينة العذاب لا ينفعهم شيئاً فبعداً

« شهيقاً » صوتاً منكراً كصوت الحمير . « تفور » تغلي بهم غليان القدور . « تكاد تميز » تتقطع وتتفرق . « فوج » جماعة من الكفار .

لأهل النار . قال تعالى :

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحٰبِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحٰبِ السَّعِيرِ (١١) ».

ثم أخبر سبحانه أن الذين يخافونـــه في خلواتهم ويكفون عن معاصيه ويقومون بطاعته وهم لم يَرَوْهُ وَعَدَهُم بالمغفرة وحسن الجزاء لقاء خشيتهم وطاعتهم له .. قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) ».

ونبه سبحانه العباد على سعة علمه وأنه مطلع على السرائر والضمائر لا يخفى عليه شيء مما يجول فيها ، وكيف يخفى على الخالق شيء من أمور مخلوقاته وهو اللطيف الخبير بما تكنه الصدور ، وسواء عنده الإسرار بالأقوال أو الجهر بها.. قال تعالى :

« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) » .

وبعد ذلك أخذ سبحانه يُعدّد شيئاً من نعمه على العباد فأخبر أنه جعل لهم الأرض ذلولاً ، أي مستقرة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ؛ سهلة لا يمتنع المشي عليها ، ولا يعسر طلب الرزق فيها ، وأمر العباد بالسير في فجاجها طلباً للرزق بالتجارة والزراعة وعامة وجوه الكسب ، وليأكلوا من رزق الله الذي سخره

« فسحقاً » فبعداً من الرحمة والكرامة .

لهم في هذه الحياة .

ثم بعد انقضاء الآجال يكون المرجع إلى الله يوم القيامة حيث يبعث الله الناس من قبورهم . قال تعالى :

« هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥) » .

ثم أخذ سبحانه يخوف الكفار من عذابه ويحذرهم من نقمته وبأسه ويقول لهم : هل أمنتم أن يجعل الله الأرض تضطرب بكم فتجيء وتذهب وهو معنى (تمور) ثم يخسفها بكم فيلقيكم أسفلها ويجعلها عليكم ؟ وهل أمنتم أن ترسل عليكم ريحاً تحمل الحصباء فيحصبكم بها تعذيباً لكم وعندئذ تعلمون سوء عاقبة تكذيبكم بإنذاري حين يحل عليكم العذاب في الدنيا كما حل بالأمم المكذبة في العصور الخوالي فكيف كان إنكاري عليهم وكيف كان عقابي لهم شديداً وأليماً . قال تعالى :

« ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ؟ » .

وفي قوله تعالى (ءأمنتم من في السماء) إثبات صفة العلو لله تعالى

« الأرض ذلولاً » مذللة لينة سهلة . « مناكبها » جوانبها ، أو طرقها وفجاجها . « إليه النشور » إليه تبعثون من القبور . « يخسف بكم » يغور بكم . « هي تمور » ترتج وتضطرب. « حاصباً » ريحاً من السماء فيها حصباء . « كان نكير » إنكاري عليهم بالإهلاك .

(وفي السماء) أي على السماء فله سبحانه العلو المطلق ، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر ، والمراد بالسماء العرش لأنه أعلى المخلوقات ثم نبه سبحانه على عظيم قدرته بالطير تحلق في الفضاء (صافات) أي تبسط أجنحتها للطيران تارة وتقبضها أخرى ولا يمسكها في حال البسط أو القبض من أن تسقط غير الله إذ هو البصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته . قال تعالى :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) » .

ثم أخذ يخاطب الكفار بصيغة الاستفهام الإنكاري توبيخاً لهم وإقامة للحجة عليهم قائلاً : من هذا الذي يمنعكم وينصركم من عذاب الله ويدفع عنكم ما أراد بكم؟ والجواب: لا أحد يمنعهم أو ينصرهم ولكنهم في غرور من الشيطان مخدوعون ، وأعاد عليهم الاستفهام قائلاً : من هذا الذي يرزقكم ويصل ما قطعه الله عنكم ؟ والجواب : لا أحد يرزقهم بعد الله ولكن الكافرين أوغلوا في الطغيان وأمعنوا في الإدبار عن الحق لا يستمعون إليه ولا ينتفعون به . قال تعالى :

« أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) » .

ثم ضرب سبحانه المثل للكافر والمؤمن ، أما الكافر في حيرته وضلاله

(صافات) باسطات أجنحتهن عند الطيران . (يقبضن) يضممنها إذا ضربن بها جنوبهن . (جند لكم) أعوان لكم ومنعة . (غرور) خديعة من الشيطان وجنده . (لجوا في عتو) تمادوا في استكبار وعناد . (نفور) شرود عن الحق .

فهو كمن يمشي منحنياً لا يبصر الطريق ولا يدري أين يسلك ، وهـذا شأنه في الدنيا ، أما في الآخرة فيحشر على وجهه إلى نار جهنم .. أما المؤمن ، فهو في الدنيا مستوٍ منتصب القامة على طريق واضح ، وهذا شأنه في الدنيا ، أما في الآخرة فإنه يحشر وهو يمشي سوياً على صراط مستقيم يوصله إلى الجنة ، فأي الرجلين أهدى سبيلاً وأصح مسلكاً ؟ قال تعالى :

« أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) » .

ثم ذكر سبحانه أنه ابتدأ خلق العباد وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً وقلوباً أي جعل لهم عقولاً وإدراكاً ولكن الكافرين لا يقومون بشكر هـذه النعمة فيستعملونها في طاعة الله وامتثال أمره وهو سبحانه الذي نشر الخلق في أقطار الأرض على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم وألوانهم ثم يجمعهم بعد هذه التفرقـة ويعيدهم كما بدأهم أول مرة . قال تعالى :

« قُلْ هُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) » .

ثم أخبر سبحانه أن منكري البعث يقولون استبعاداً لوقوعه : متى يكون هذا الوعد بالبعث والجزاء على الأعمال ؟ وأمر الرسول أن يرد عليهم بقوله : إنه

(مكباً على وجهه) ساقطاً عليه ولا يأمن العثور . (يمشي سوياً) مستوياً منتصباً سالماً من العثور . (ذرأكم) خلقكم وبثكم وفرقكم .

لا يعلم تحديد ذلك على وجه اليقين غير الله سبحانه وإنما أمرت أن أنذركم بوقوعه لا محالة . قال تعالى :

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) » .

ثم أخبر سبحانه أن المشركين والجاحدين للبعث حين تقوم القيامة وحين يشاهدون تحقيق وعد الله في البعث والجزاء تعلو وجوههم الكآبة وتقول لهم الملائكة أو خزنة جهنم : هذا الوعد الذي كنتم تستعجلونه ولا تصدقون بوقوعه . قال تعالى :

« فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) » .

ثم أمر الله رسوله أن يرد على الكافرين الذين كانوا يتمنون هلاكه ومن معه من المؤمنين قائلاً : لو أن الله تعالى قدّر عليّ وعلى المؤمنين الهلاك أو تفضل علينا برحمته فمد لنا في الأجل إلى نهايته فمن يجيركم أنتم من عذاب الله المؤلم إذا استمررتم على الكفر ؟ وإنما الذي ينجيكم من عذاب الله حقاً التوبة والرجوع إلى دينه . وأمر الرسول أيضاً أن يعلن للكفار بأنه والمؤمنين معه قد أخلصوا الدين لله وآمنوا به فلا يعبدون غيره وأخلصوا له التعلق فلا يعتمدون على أحد سواه وسوف ينكشف الأمر في الآخرة لكلا الفريقين ويتضح أيهما كان على الحق

(رأوه زلفة) رأوا العذاب قريباً منهم . (سيئت) كئبت واسودت غمّاً وذلاً . (تدعون) تطلبون أن يعجل لكم .

أو الضلال أو لمن تكون العاقبة الحميدة . قال تعالى :

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) » .

وأمر الله الرسول أيضاً أن يوجه أنظار الكفار إلى نعمة عظيمة من نعمه هي الماء ، لو جعله غائراً في الأرض بعد أن أنعم على العباد بجريانه بحيث يسهل الانتفاع به وتناوله بالدلاء والأيدي لما استطاعوا إعادته ولما كان في مقدور أحد أن يأتيهم بمثله . قال تعالى :

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ (٣٠) » .

والماء المعين : قيل هو الكثير . وقيل هو الجاري ، والله أعلم .

(أرأيتم) أخبروني . (يجير الكافرين) ينجيهم . (غوراً) ذاهبا في الأرض لا ينال . (بماء معين) جار أو ظاهر ، سهل التناول .

تفسير سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

« نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) ».

افتتح سبحانه هذه السورة بحرف من الحروف المقطعة . والكلام عن افتتاح بعض سور القرآن ببعض الحروف المقطعة واسع مديد ، غير أن أحسن ما قيل في ذلك : أن الله تعالى افتتح بعض السور بأمثال هذه الحروف المقطعة وهو أعلم بمراده منها . أما قوله تعالى : (والقلم وما يسطرون) فقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها : الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله : (إقرأ وربك الأكرم الذي عَلّم بالقلم عَلّم الإنسان ما لم يعلم) . فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ولهذا قال : (وما يسطرون) يعني وما يكتبون . فالضمير في (يسطرون) يعود على

(والقلم) قسم بالقلم الذي يكتب به . (ما يسطرون) ما يكتبونه بالقلم . (غير ممنون) غير مقطوع عنك . (بأيكم المفتون) في أي طائفة منكم المجنون .

بني آدم. وقيل : المراد بالقلم الذي كتب به اللوح المحفوظ والضمير في (يسطرون) يعود على الملائكة . وقـــال البغوي : (يسطرون) يكتبون أي ما تكتب الملائكة الحفظة من أعمال بني آدم (ونعمة ربك)أي ربك . يقول الله لرسوله: لست مجنوناً كما يقول المكذبون ولكنك رسول أنعم الله عليك بنعمة الرسالة والنبوة وإن لك على تبليغ الرسالة والصبر في سبيل الدعوة وتحمل أذى قومك (لأجراً) غير مقطوع ، وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام فلا تكترث بأقوالهم ولا يضيق صدرك بفعالهم ، فسوف ترى ويرون ، وتعلم ويعلمون إذا نزل بهم العذاب يوم القيامة من المفتون الذي افتتن عن الحق وضل عن سواء السبيل . وقيل : فسوف يعلمون حينئـــذ من المجنون . والواقع أن الله تعالى يعلم أي الفريقين منكم أهدى سبيلا ، ويعلم المنحرف الضال عن الحق المتباعـــد عن الهداية — ثم أمر الله رسوله بعدم طاعته المكذبين من قومه إذا دعوه لاتبـــاع دينهم وعبادة آلهتهم . ويقول له : إنهم بودهم لو تداهن في دينك فيداهنون هم أيضاً في دينهم ويصانعونك ، والمداهنة والمصانعة المطلوبة من الرسول هي أن يعبد آلهتهم سنة وأن يعبدوا إلهه سنة . قال تعالى :

« فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) » .

ثم نهى الله تعالى رسوله عن طاعة كل كثير الحلف بالباطل ضعيف الرأي ، حقير يغتاب الناس ويمشي بينهم بالنميمة ليفسد الصلات وعلاقات المودة ، بخيل شحيح يمنع ما عليه وما لديه من الخير ، ظلوم يتعدى الحق ، وقيل : (معتد) أي في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيه المشروع (أثيم) أي فاجر يتنـــاول المحرمات (عتل) وهو الغليظ الجافي وبعد كل هـــذه الأوصاف فهو (زنيم)

(ودوا لو تدهن) أحبوا أن تلاينهم وتصانعهم . (فيدهنون) فهم يلاينوك ويصانعونك .

أي دعي ملتصق بقريش ليس منهم ، وقيـــل : الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها . والزنمة اللحمة المتدلاة في الحلق . قيل ، إنه يقصد بهـــذه الأوصاف الذميمة شخص مُعين ، وقيـــل المقصود بها الوليد بن المغيرة ، وقيل الأخنس بن شريق ، وقيل غيرهمـــا . المهم أن الله سبحانه أمر رسوله بمجانبة هذا الحلاف المهين وعدم طاعته فقد وهبه الله المال والبنين فقابـل هذه النعمة بالكفر بآيات الله والإعراض عنها وزعم أنهـا كذب مأخوذ من أساطير الأولين . وقد توعده الله بأن يسمه على أنفه أي يجعل له علامة يُعرف بهـا ، قيل يسود وجهه في الآخرة . قال تعالى :

« وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦) » .

بعد هذا أخذ سبحانه يذكر قصة أصحاب الجنة وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ، وكانت لإخوة من بني إسرائيل حلفوا ليصرمنهـــا من ثمرها ولا يتصدّقون منهـا على مسكين وباتوا على هـــذا العزم مصرين ؛ فأرسل الله على جنتهم ناراً بالليل أحرقهـا ، وفي الصباح غدوا على جنتهم لتنفيذ العزم الذي باتوا عليه فلم يروهـــا ، وحسبوا أنهم أخطأوا الطريق إليها ثم تبينوها فعرفوها وعلموا أن الله تعالى عاقبهم على ما اعتزموه من حرمان المساكين وعـــدم التصدق عليهم فندموا وتابوا إلى الله إذ أدركوا غلطهم ،

(حلاف) كثير الحلف بالباطل . (مهين) حقير في الرأي والتدبير . (هماز) عيّاب أو مغتاب للناس . (مشّاء بنميم) بالسعاية والإفساد بين الناس . (عتل) فاحش لئيم . (زنيم) دعي ملصق بقومه . (أساطير الأولين) أباطيلهم المسطرة في كتبهم . (سنسمه على الخرطوم) سنذله غاية الإذلال .

وشبه الله قريشاً بأصحاب هذه الجنة حيث أنعم الله عليهم ببعثة الرسول ﷺ كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة فكفرت قريش بهذه النعمة كما كفر أصحاب الجنة نعمة الله عليهم فعاقبهم الله كما يعاقب كل جاحد لنعم الله . قال تعالى :

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) » .

(يستثنون) أي لم يقولوا إن شاء الله حين عزموا على جني ثمارها (طائف) أي عذاب وهو النار التي سلطها الله على الجنة المذكورة فأحرقتها (كالصريم) كالليل المسود مما أصابها أو كالشيء المحرق أو المقطع .

« فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) » .

(تنادوا مصبحين) نادى بعضهم بعضاً مبكرين ليصرموا الجنة ويجنوا ثمرها (يتخافتون) يتهامسون (لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) أي لا

(بلوناهم) امتحنا أهل مكة بالقحط . (الجنة) بستان بالقرب من صنعاء . (ليصرمنها) ليقطعن ثمارها بعد الاستواء . (مصبحين) داخلين في وقت الصباح . (يستثنون) حصة المساكين كأهليهم . (فطاف عليها) نزل بها . (طائف) بلاء محيط . (كالصريم) كالليل الأسود أو البستان المصروم . (فتنادوا) نادى بعضهم بعضا . (اغدوا على حرثكم) باكروا مقبلين على بستانكم . (صارمين) قاصدين قطع ثماره ، (يتخافتون) يتشاورون بالحديث ، (غدوا) ساروا غدوة إلى حرثهم . (على حرد) على انفراد عن المساكين . (قادرين) على الصرام

تمكنوا فقيراً من حضور هذا العمل (على حرد) على غيظ مكتوم على المساكين أو على جد من الأمر وحزم فيه (قادرين) أي في ظنهم على التصرف في جنتهم وفي حرثهم لا يحول بينهم وبين ذلك أحد .

« فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)».

لما رأوا ما حل بهـا من العذاب والإحراق أنكروها وظنوا أنهم ضلوا الطريق إليها ولكنهم عادوا فتعرفوها وتأكدوا منها وأدركوا عندئذ غلطتهم وأيقنوا أن الله تعالى أنزل بها عذابه فأحرقها وحرمهم منهـا ومن ثمارها جزاء حقدهم وحنقهم على المساكين .

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) » .

أوسطهم : أي أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم . (لولا) : أي هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم . وقيل : (تسبحون) أي (تستثنون) أي تقولون : إن شاء الله عند عزمكم على الصرم والأول أظهر .

« قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) » .

صححوا غلطتهم واعترفوا بذنبهم وسبحوا الله تعـالى وأقروا على أنفسهم بالظلم لحرمانهم المساكين من ثمار جنتهم :

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) » .

(لولا تسبحون) هلاّ تستغفرون الله من معصيتكم ، (يتلاومون) يلوم بعضهم بعضا ، (إلى ربنا راغبون) طالبون منه الخير والعفو .

(يتلاومون) يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين حقهم فيما جذّوه من الثمر ثم نادوا على أنفسهم بالويل وقالوا إنما أصبنا في جنتنا بسبب طغياننا ثم رغبوا إلى الله أن يعوضهم خيراً من جنتهم . وقيل إنهم احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة .

« كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) » .

أي مثل هذا العذاب الذي أنزله الله بأصحاب الجنة سوف ينزله بقريش إذ كذبوا رسوله وجحدوا نعمه . ولهم في الآخرة عذاب أشق من عذاب الدنيا لو كانوا يعلمون عذاب الآخرة .. !

وبعد أن قص الله تعالى قصة أصحاب هذه الجنة وما نالهم من النقمة حين عصوا الله أردف ذلك ببيان ما أعده للمتقين الذين اتقوا ربهم بدوام الطاعة والخشية من العذاب فذكر أن لهم في الآخرة نعيماً لا ينقطع في جنان لا تفنى ولا تبيد .

ولما قال المشركون للمؤمنين : إنا سوف نعطى في الآخرة جزاء أفضل مما تعطون ، أكذبهم الله تعالى بقوله (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) أي كيف يصح ذلك في شرع الله وفي عدله ؟ ثم سألهم سؤال المنكر بل سؤال الساخر بحكمهم وعقولهم (ما لكم ؟ كيف تحكمون ؟!) ثم سألهم كيف يكون ذلك ؟ وكيف يصح في عدله مساواة المسلمين بالمجرمين في الجزاء ؟! إنكم تحكمون بأهوائكم وتقولون ما ليس لكم به علم ؟

ثم سألهم هل نزل لكم كتاب من عند الله تقرأون فيه أن لكم ما تختارونه وتشتهونه لأنفسكم — أو هل أخذتم على الله عهوداً ومواثيق مؤكدة إلى يوم

القيامة فاستوثقتم بذلك من أن لكم ما تحكمون به لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله ؟. قال تعالى :

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) » .

ثم وجه سبحانه الخطاب للرسول ﷺ قائلاً : طالبهم بما يكفل ويضمن لهم المساواة في الجزاء بينهم وبين المسلمين .

« سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) ».

أو هل عندهم شركاء لله من أصنامهم وأندادهم تنفذ لهم ما يحكمون به وما يريدونه لأنفسهم؟ فإن كان لشركائهم هـــذه القدرة فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في مزاعمهم . قال تعالى :

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ (٤١) ».

ويطالبون بإحضار الشركاء يوم القيامة يوم تبدو الأهوال ويشتد البـــلاء والامتحان وتظهر الأمور العظـــام تعجيزاً لهم إذ لا يغني ذلك اليوم والد عن ولده ولا يسأل حميم حميماً ، ويطالب عندئذ الكفار والمنـــافقون بالسجود لله توبيخاً لهم لأنهم لا يقدرون على ذلك وقد تركوا السجود في الدنيا مع قدرتهم

(لما تخيرون) للذي تختارونه وتشتهونه . (لكم أيمان علينا) عهود مؤكدة بالأيمان .
(لما تحكمون) للذي تحكمون به لأنفسكم . (زعيم) كفيل بأن يكون لهم ذلك .

عليه وتراهم من هول القيامة ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها للذل الذي غشيهم.
قال تعالى :

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ (٤٣) » .

أورد ابن كثير –رحمه الله– عند تفسير هذه الآية حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » قال : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق وله ألفاظ وهو حديث طويل مشهور ، وفي هذا الحديث إثبات صفة من صفات الله تعالى يؤمن بها السلف من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تأويل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل .

بعد ذلك أخذ الله سبحانه يتوعد الكفار على تكذيبهم بالقرآن ، يتوعدهم بتقريبهم من العذاب قليلاً قليلاً وهم لا يشعرون ، ويمهلهم ويمدهم وينظرهم وذلك هو كيد الله لهم – وكيد الله هو تدبيره الخفي فلا يشعرون إلا والعذاب قد أحاط بهم ، وإن كيد الله عظيم لمن خالف أمره وكذب رسله واجترأ على معصيته.
قال تعالى :

(يكشف عن ساق) كناية عن شدة هول القيامة . (خاشعة أبصارهم) ذليلة منكسرة .
(ترهقهم ذلة) يغشاهم ذل وخسران .

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) » .

وعاد الخطاب موجهاً لرسول الله ﷺ يقول له سبحانه : هل طلبت منهم أجرة وجعلاً على تبليغهم الرسالة فأعرضوا عنك مستثقلين هـذه الغرامة التي فرضتها عليهم ؟ أو هـل عندهم علم بالمغيبات مما سطره الله في اللوح المحفوظ فيكتبون منه ما يقولونه وما يحكمون به ؟ قال تعالى :

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) » .

ثم أمر الرسول بالصبر على أذاهم وعلى تكذيبهم لقضاء الله الذي قضاه بجعل العاقبة الحميدة للمسلمين في الدنيا بالنصر والتأييد على الكافرين وفي الآخرة بالنعيم المقيم ، ونهى الرسول أن يسلك سبيل نبي الله يونس في الضجر من قومه حين ذهب مغاضباً لهم ، وكان من أمره ما قصه الله تعالى في سورة الأنبياء وسورة الصافات ، وأنه دعا الله سبحانه بعد أن التقمه الحوت ، دعاه من بطن الحوت وهو مكروب فاستجاب الله دعاءه وأخرجه من بطن الحوت الذي ابتلعه ، ولولا لطف الله ورحمته لألقي من بطن الحوت في الفضاء ملوماً مذموماً ، ولكن الله تعالى بعد أن أنقذه تداركه برحمته وتاب عليه واختاره لرسالته وجعله من

(فذرني) دعني وخلني . (سنستدرجهم) سندنيهم من العذاب درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه . (أملي لهم) أمهلهم ليزدادوا إثماً . (مغرم) غرامة ذلك الأجر . (مثقلون) مكلفون حملاً ثقيلاً .

الأنبياء . قال تعالى :

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) » .

ثم أخبر الله رسوله أن شدة عداوة الكفار له تدفعهم للنظر إليه شزراً كأنهم يريدون أن يصرعوه ويزيلوه عن موضعه ويرمونه بالجنون لما سمعوا القرآن .. وقيل : أرادوا أن يصيبوه بالعين لولا وقاية الله وحمايته منهم . والواقع أن القرآن لا يجلب الجنون وإنما هو عظة وتذكير لمن يتذكر به ويتعظ من الناس أجمعين إنسهم وجنهم . قال تعالى :

« وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) » .

(مكظوم) مملوء غيظاً في قلبه على قومه . (لنبذ بالعراء) لطرح بالأرض الفضاء المهلكة .
(فاجتباه ربه) اصطفاه بعودة الوحي إليه . (ليزلقونك) يزلون قدمك فيرمونك .

تفسير سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ».

الحاقة من أسماء يوم القيامة لأنه يتحقق فيها وعد الله للمؤمنين برضوان الله ودخول جنات النعيم ، ويتحقق وعده للكافرين بعسير الحساب وسوء المنقلب ولهذا عظم أمرها وردد ذكرها ، فقال : (وما أدراك ما الحاقة ؟) .

ثم أخذ سبحانه يستعرض الأمم المكذبة بالقيامة فبدأها بقوم ثمود وعاد وذكر أن ثمود كذبوا بالقارعة أي بالكارثة التي تقرع القلوب وتفزعها بأهوالها .

أخذ سبحانه يفصّل طريقة إهلاكهم فذكر أن قوم ثمود أهلكوا بالصيحة وهي (الطاغية) لأنها جاوزت الحد في الشدة ، وقيل (الطاغية) : الذنوب والطغيان ، أي أهلكوا بسبب ذنوبهم . وأما عاد فأهلكهم الله بريح صرصر وهي الباردة (عاتية) متجاوزة الحد شديدة الهبوب عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة ، سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة لا تفتر عنهم حتى أهلكتهم فتراهم فيها (صرعى) هلكى جمع صريع كأنهم أصول نخل خاوية من طول بلاها وفسادها لم تُبق منهم أحداً بل هلكوا عن آخرهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : خاوية خربة وقال غيره : بالية أي جعلت الريح تضرب بأحدهم

(الحاقة) الساعة يتحقق فيها ما أنكروه .

الأرض فينشدخ ويخر ميتاً على أم رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان ، ذكره ابن كثير ؛ قال تعالى :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ؟ (٨) ».

ثم عرض سبحانه لذكر فرعون حيث كذب رسول الله موسى ، وعرض لمن قبل فرعون من الأمم المكذبة لرسل الله الكافرة فذكر منهم قرى قوم لوط وهي المؤتفكات يريد أهل المؤتفكات ، وقيل يريد جميع الأمم المكذبة لما عصوا رسلهم أخذهم الله بالعذاب أخذة رابية أي مهلكة . قال تعالى :

« وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) » .

(بالقارعة) بالقيامة تقرع القلوب بإفزاعها . (بالطاغية) بالعقوبة المجاوزة للحدّ في الشدة . (بريح صرصر) شديدة السموم أو البرد أو الصوت . (عاتية) شديدة العصف. (سخرها عليهم) سلطها عليهم . (حسوماً) متتابعات أو مشؤومات . (أعجاز نخل) جذوع نخل بلا رؤوس . (خاوية) ساقطة أو فارغة أو بالية . (المؤتفكات) قرى قوم لوط « أهلها » . (الخاطئة) بالفعلات ذات الخطإ الجسيم . (أخذة رابية) زائدة في الشدة .

بعد هـــذا أخذ الله يمتن على العباد بحمله لآبائهم في سفينة نوح عندمـــا تجاوز المـاء حده زمن طوفان نوح وجعلهم في مأمن من الغرق وجعـل هذا الصنيع وهو نجاة المؤمنين بحملهم في السفينة وغرق المكذبين عبرة وعظة يسمعها العقلاء بآذانهم فيحفظونها وينتفعون بما يسمعون من كتابه تعالى. قال تعالى :

« إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَاءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ (١٢) ».

وأخذ بعد ذلك سبحانه يذكر شيئاً من أهوال يوم القيامة فذكر النفخ في الصور للبعث والنشور ثم أكد أن النفخة واحدة لأن أمر الله لا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد، وذكر رفع الأرض عن أماكنها والجبال وتبدل الأرض غير الأرض وصيرورة الجبال هباء منثوراً بعد دكها وتكسيرها عندئذ تقوم القيامة وتنشق السماء فتكون في ذلك اليوم ضعيفة ويقف الملائكة على حافاتها ونواحيها ويحمل عرش الله يوم القيامة ثمانيـــة من الملائكة ويعرض الخلائق على الله للحساب والجزاء فلا يخفى عليه من أمورهم شيء . قال تعالى :

« فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا

« الجارية » سفينة نوح عليه السلام. « تذكرة » عبرة وعظة . « تعيها » تحفظها . « حملت الأرض » رُفعت من أماكنها بأمرنا . « فدكتا » فدقتا وكسرتا أو فسويتا . « وقعت الواقعة » قامت القيامة . « انشقت السماء » تفطرت وتصدعت . « واهية » ضعيفة متداعيـــة . « على أرجائها » جوانبها وأطرافها .

وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) » .

ثم أخذ سبحانه يقص حال السعداء في موقف الحساب وفرحهم وغبطتهم بتناولهم صحائف أعمالهم بأيمانهم ومن شدة الفرح يعرضون صحائفهم على كل من يلقونه ويطلبون منه قراءتها ويقولون : إنا كنا موقنين بهذا اليوم وهذا الجزاء العادل ، وأخبر سبحانه أن هذا الصنف سوف يكون في الآخرة في حالة من العيش مرضية عنده ، ثم وصف سبحانه لون هذا النعيم فأخبر أنه جنة رفيعة قريبة الثمار يأكلون منها قائمين وقاعدين ومضطجعين دون عناء وكلفة ويقال لهم تلذذوا بهذا النعيم من مأكل ومشرب هنيئاً لكم وجزاء لما قدمتموه في الأيام السالفة أيام الدنيا من الأعمال الصالحة ، قال تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَـٰبِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤) » .

ثم أخبر سبحانه عن حال الأشقياء وأنهم يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم بعد أن تلوى خلف ظهورهم امتهاناً لهم فتمنى أحدهم من شدة الغم أنه لم يعط صحيفة عمله لما سطر فيها من قبائح أعماله ويتمنى أن لو كانت موتته التي ماتها

« هاؤم » خذوا ، أو تعالوا . « كتابيه » كتابي ، والهاء للسكت . « قطوفها دانية » ثمارها قريبة التناول . « هنيئاً » غير منغّصٍ ولا مكدر .

قاضية عليه فلم يبعث بعدها . ثم يأخذ في مخاطبة نفسه بلسان حـــاله أو مقاله قائلاً : أي شيء أغنى عني مالي من عذاب الله فقد ضلت عني حجتي ؟.. وذلك عندما تشهد عليه جوارحه بالشرك والمعاصي .. وقـد زال عني ملكي وقوتي وعندئذ يأمر الله تعالى الزبانية أن تأخذه بعنف من الحشر فتجمع يده إلى عنقه في الغل ويدخل في سلسلة طولها سبعون ذراعاً ثم يورد إلى جهنم فيصطلي بنارها ويغمر فيها ذلك لأنه كان مكذباً بالله العظيم ولم يقم بحقوق الخـالق من توحيده وطاعته ولم يقم بحقوق المخلوق : (لا يحض على طعام المسكين) أي لا يفعله ولا يرغّب فيه .. قال تعالى :

« وَأَمَّـــا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَـــالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ (٢٩) خُـــذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَـا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) ».

ولذا فليس له في هذا اليوم قريب يشفع له عند الله ، وليس له طعـــام غير صديد أهل النار وهو الغسلين مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقيل هو الزقوم ولا يتناول هذا الطعام إلا الكافرون . قال تعالى :

(كانت القاضية) الموتة القاطعة لأمري . (ما أغنى عني) ما دفع العذاب عني . (ماليه) ما كان لي من مـــال وغيره . (سلطانيه) حجتي ، أو تسلطي وقوتي . (فغلوه) فقيدوه بالأغلال . (الجحيم صلوه) أدخلوه ، أو أحرقوه فيها . (فاسلكوه) فأدخلوه فيهـــا . (لا يحض) لا يحث ولا يحرض .

« فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَٰطِئُونَ (٣٧) » .

ثم أقسم سبحانه لخلقه بما يشاهدونه من المرئيات والمحسوسات من آياته وبما خفي عن أبصارهم من المغيبات، أقسم لهم بذلك تأكيداً أن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله محمد ﷺ وأضافه إلى الرسول على معنى التبليغ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل. أما الكلام فإنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً ، وليس القرآن بقول شاعر أو كاهن بل هو منزل من عند الله ولكن الكفار لا يؤمنون به ولا بنزوله من عند الله ولا يتعظون بما فيه. قال تعالى :

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) ».

« ما » في قوله تعالى : (قليلا ما تؤمنون — قليلا ما تذكرون) يحتمل أن تكون نافية وأراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمن قطعك : قلما تأتينا وتقصد أنه لا يأتيك أصلاً ، أو مصدرية فيكون وصف إيمانهم بالقلة، والقلة هنا بمعنى العدم أي لا تؤمنون ولا تذكرون .

(حميم) قريب مشفق يحميه . (غسلين) صديد أهل النار . (الخاطئون) الكافرون . (فلا أقسم) أقسم و « لا » مزيدة .

ثم أخبر سبحانه عن أمانة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة فذكر أنه لم يزد فيها ولم ينقص منها شيئاً من عند نفسه ولو فرض أنه فعل شيئاً من ذلك لانتقم الله منه أشد الانتقام ولأخذ منه باليمين ولقطع منه الوتين وهو العرق الرئيسي الذي يتعلق به قلبه فيهلك ولا أحد يستطيع أن يحول بينه وبين عقاب الله أو يحجزه عنه . قال تعالى :

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) » .

وختم سبحانه السورة مبيناً أن القرآن من أغراضه العظة لكل من يخشى الله ويخاف عقابه وأنه سبحانه سبق في علمه أن في الخلق من يكذب بالقرآن رغم بيانه ووضوحه وعدم احتمال أن يكون من عند غير الله ، وأن القرآن سوف يكون حسرة لهؤلاء المكذبين عندما يعاينون ما أعده الله للمؤمنين في الآخرة من النعيم والكرامة وأنه أيضاً هو الحق المتيقن الذي لا مرية فيه ثم أمر رسوله بتنزيه الله عما يقول الظالمون . قال تعالى :

« وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢) » .

(تقوّل علينا) اختلق وافترى علينا . (باليمين) بيمينه ، أو بالقوة . (الوتين) نياط القلب ، أو نخاع الظهر . (حاجزين) مانعين الهلاك . (الحسرة) ندامة . (فسبح باسم ربك) نزهه عما لا يليق به .

تفسير سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) » .

تنص الآية على أن سائلا قام بتوجيه سؤال عن عذاب الله الذي لا شك في وقوعه ونزوله بالكافرين . أما هذا السائل فقيل هو النضر بن الحارث بن كلدة. وقيل إن قريشاً سألت رسول الله ﷺ عندما خوّفها بعذاب الله ، سألته قائلة: لمن هذا العذاب ومن هم أهله ؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل إن الحارث ومن على رأيه من قريش من المكذبين المشركين سألوا الله ، بمعنى دعوه قائلين : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وقد استجاب الله دعاءهم فقتل النضر صبراً بعد وقعة بدر ، وقتل جماعة من صناديد قريش في الوقعة نفسها . وسواء كان هذا هو العذاب المعني في الآية أو غيره مع ما أعده الله لهم في الآخرة فهو نازل بهم من عند الله ذي المعارج أي الدرجات العالية وصاحب العلو المطلق ، ففي الآية إثبات صفة العلو لله تعالى ، وهو مذهب أهل السنة ، والذي درج سلف الأمة ، يثبتون لله علواً يليق بجلاله وعظمته — ثم أخبر سبحانه بصعود الملائكة وجبريل إليه

(سأل سائل) دعا داع . (ذي المعارج) ذي السموات ، أو الفضائل والنعم .

وأن العذاب الذي سوف ينزله بالكافرين سوف يكون في يوم يبلغ طوله خمسين ألف سنة وهو يوم القيامة بدليل حديث مانعي الزكاة : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا صفحت له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد .. يعني يوم القيامة » ثم أخذ سبحانه يسلي الرسول ﷺ عن تكذيب قومه ويأمره بالصبر الجميل على ما يناله منهم وعلى استعجالهم العذاب واستبعادهم لوقوعه فهم يرون وقوع العذاب وقيام الساعة بعيداً والله سبحانه يراه قريباً إذ لا محالة في وقوعه وكل آت قريب . وقيل إن المؤمنين يرونه (أي العذاب وقيام الساعة) قريباً وإن كان له أجل لا يعلمه إلا الله فهو كائن لا محالة . قال تعالى :

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا (٧) » .

ثم أخذ سبحانه يذكر بعض ما يكون في يوم القيامة من الأهوال فذكر تغير السماء وأنها تصير كالمهل وهو عكر الزيت ، شبهها بذلك في سوادها وانكدار أنوارها ، وقيل المهل هو ما أذيب من الفضة ونحوها ، شبه السماء به في تلونه ، وتصير الجبال كالعهن وهو الصوف المنفوش شبه الجبال به في انتفاشه وتخلل أجزائه . في ذلك اليوم ينزل الله عذابه بالكافرين فيرى القريب قريبه والصديق صديقه فلا يسأل عنه من شدة الأهوال وقد

(تعرج الملائكة) تصعد . (الروح) جبريل عليه السلام . (صبراً جميلاً) لا شكوى فيه لغيره تعالى .

يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عنه . قال تعالى :

« يَوْمَ تَكونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلاَ يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ » .

ثم أخبر سبحانه أن الكافر في ذلك اليوم يود ويتمنى لو يحصل له أن يفتدي من عذاب الله يومئذ بأحب الناس إليه وهم أبناؤه وصاحبته وهي زوجته . وبأخيه وبفصيلته وهي قبيلته وعشيرته التي فصل منها والتي تضمه ويأوي إليها ، وبكل أهل الأرض جميعاً . لو صح أن يفتدي بهم ليدفع عن نفسه العذاب لفعل ولكن (كلا) يعني هيهات .. إنه لا ينجيه من عذاب الله شيء . قال تعالى :

« يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلاَّ » .

ثم أخذ سبحانه يصف جهنم وشيئاً من عذابها فذكر أن من أسمائها لظى .. سميت بذلك لأنها تتلظى أي تتلهم وذكر من عذابها أنها تنزع الشوى ، قيل تنزع جلدة الرأس وكل الجلود .. وقيل تنزع أطراف اليدين والرجلين وتنادي عمّارها الذين خلقهم الله لها ممن أعرض عن الإيمان وتولى عن الحق ، وجمع الأموال فأمسكها في الأوعية ولم يؤد حق الله الواجب فيها وهي

« السماء كالمهل » كالمعدن المذاب ، او عكر الزيت . « الجبال كالعهن » كالصوف المصبوغ ألواناً . « حميم » قريب مشفق . « يبصرونهم » يعرف الأحماء احماءهم . « فصيلته » عشيرته او الأقربين . « تؤويه » تضمه في النسب ، او عند الشدة .

الزكاة . قيل في معنى (تدعو) أنهـا تناديهم بلسان طلق ثم تلتقطهم .. قال تعالى :

« إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَـةً لِلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) » .

بعد هـذا أخذ سبحانه يذكر طرفاً من الأخلاق الذميمة التي جبـل عليها جنس الإنسان . فأخبر أنه جبـل على الهلـع وهو الجزع وعدم الصبر أي يجزع للمصائب والنقم تنزل به ويضجر منهـا ولا يصبر عليهـا ، وهو أيضاً يبخل بالفضل من الخير يصيبه ويمنع حق الله فيه ، غـير أن الله تعالى قـد استثنى من العموم طوائف ارتفعت عن خصال الذم وتحلت بخلال الخير وهم الذين يحافظون على صلواتهم المفروضة ويؤدونها بخشوع وطمأنينـة والذين جعلوا في أموالهم قسطاً معلوماً – يعني الزكاة – لذوي الحاجـات من سائل ومحروم . أمـا السائل فهو الذي يبدأ بالسؤال ، وأمـا المحروم فهو الذي لا مال له سواء كان لا يقدر على الكسب أو قـد هلك ماله بآفـة أو نحوهـا . والذين يؤمنون بيوم الجزاء والحساب فيعملون في الدنيـا عمل من يرجو الثواب ويخشى العقاب . والذين يخافون الله ذلـك لأن عذاب الله لا يأمنه أحد إلا بأمان من الله تعـالى . والذين يكفون فروجهم عن الحرام ويبتعدون بها عن موضع الآثام فلا يقربون إلا ما أذن الله لهم فيه من الزوجات والإمـاء من ملك اليمين ، فإنهم لا يلامون على ذلك إذا كان ممـا أحله الله لهم ، ومن يزد فوق مـا أحله الله له من الزوجات وملك اليمين فقد اعتدى وتجاوز الحلال إلى الحرام . والذين يرعون الأمانة والعهد فإذا ائتمنوا لم يخونوا

(إنها لظى) جهنم ، او طبق منها . (نزّاعة للشوى) قلاعة للأطراف ، او جلد الرأس .
(فأوعى) امسك ما له في وعاء بخلا .

وإذا عاهدوا لم يغدروا والذين يقومون بأداء الشهادات على وجهها لا يزيدون فيها ولا ينقصون ولا يكتمونها ، والذين يحافظون على مواقيت الصلاة وأدائها بأركانها وواجباتها ومستحباتها فافتتح سبحانه بالصلاة أوصاف من تحلى من عباده بخلال الخير ، واختتمها بالصلاة أيضاً مما يشعر بشرفها للعناية بها وكثرة فضلها وثوابها . قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ».

وقد وعد سبحانه أصحاب هذه الأوصاف بخير الجزاء . يكرمهم الله تعالى

(هلوعاً) سريع الجزع ، شديد الحرص . (جزوعاً) كثير الجزع والأسى . (منوعاً) كثير المنع والإمساك . (المحروم) من العطاء لتعففه عن السؤال . (مشفقون) خائفون. (العادون) المجاوزون الحلال إلى الحرام .

بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، بالنعيم المقيم الدائم في جنات الخلد . ثم وجه سبحانه الخطاب لرسوله محمد ﷺ منكراً على الكفار صنيعهم في إقبالهم صوب رسول الله ﷺ مسرعين ، مديمي النظر إليه ، ثم لا يعملون بما أمرهم به ولا ينتفعون بما يستمعون إليه بل ينفرون منه جماعات تأخذ يميناً وشمالا متفرقة . قيل نزلت هذه الآية في جماعة من المستهزئين من المشركين فأنكر الله عليهم ذلك ، ورد عليهم زعمهم دخول الجنة حيث قالوا إن كانت ثمة جنة فنحن أهلها .. قائلاً : هل يطمع من هذا حاله من النفور عن الحق والفرار عن الرسول أن يدخل كالمسلم المطيع الجنة ينعم فيها حقاً ؟! إنهم لن يدخلوها ولقد علموا أنهم مخلوقون كغيرهم من نطفة ثم من علقة من ثم مضغة فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة وإنما يتفاضل الناس بالأعمال وتستوجب الجنة بالإيمان والطاعة لا بالكفر والمعصية .. وأقسم سبحانه بنفسه وهو رب مشارق الشمس ومغاربها أنه قادر على إهلاكهم والإتيان بقوم آخرين غيرهم خير منهم وأمثل وأطوع لله وأكثر استجابة لرسوله ولن يعجزه ذلك إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . قال تعالى :

« أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) » .

(مهطعين) مسرعين ، مادين أعناقهم إليك . (عزين) جماعات متفرقين . (فلا أقسم) أقسم و « لا » مزيدة . (بمسبوقين) مغلوبين أو عاجزين .

(مهطعين) مسرعين (عزين) متفرقين (بمسبوقين) بمغلوبين أو عاجزين .

وعاد سبحانه يوجه الخطاب لرسوله متوعـــداً الكفار قائلا : دعهم في تكذيبهم و كفرهم وعنادهم وباطلهم إنهم سوف يلقون جزاء ذلك في اليوم الذي وعدهم الله فيه بالجزاء والحساب .. ذلك اليوم الذي يخرجون فيـه من القبور مسرعين كأنهم يسرعون إلى أصنامهم في الدنيا . وأصل النصب ، كل ما نصب للإنسان من علم أو غير ذلك فهو يقصد إليه مسرعاً ، وفي ذلك اليوم تكون أبصارهم خاضعة ذليلة لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب وقد غشيهم الهوان . قيل هو سواد الوجوه .. ذلك اليوم الذي وعدوا به في الدنيا هو يوم القيامة . قال تعالى :

« فَــذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُــمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) » .

(فذرهم) فدعهم وخلهم . (يخوضوا) لينغمسوا في باطلهم . (من الأجداث) من القبور . (سراعاً) مسرعين إلى الداعي . (نصب) أحجار عظموهـــا في الجاهلية . (يوفضون) يسرعون . (خاشعة أبصارهم) ذليلة منكسرة . (ترهقهم ذلة) تغشاهم مهانة شديدة .

تفسير سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ».

الإنذار هو الإعلام مع التحذير والتخويف ، ويذكر الله تعالى أنــه أرسل رسوله نوحاً إلى قومه يحذرهم ويخوفهم من عذابه المؤلم ، وبأسه النازل بهم إن هم تمادوا في الطغيان وعبادة الأوثان . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين في قوم نوح ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا فيها صور أولئك ليذكروا حالهم وعبادتهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء الصالحين (انتهى) ولما تفاقم الأمر وانصرفوا عن الله بعث فيهم رسوله نوحاً يحذرهم عاقبة التمادي في هذه العبادة الباطلة ويخوفهم من عذاب الله . وصدع نوح بأمر الله والدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له والخوف منه واتقاء عذابه بطاعته وطاعة رسوله نوح عليه السلام إذ جاءهم بأمر الله والبشارة بتحقيق وعد الله لمن آمن منهم بغفران الذنوب وتمديد آجالهم أو البركة في أعمارهم التي كتبها الله لهم ومنحهم العافية إلى نهايتها بحيث يقضون الأعمار المكتوبــة في راحة وصحة ، وأخبر نوح قومه أن الموت وهو أجل الله المذكور في الآية نازل بهم لا محالة وطلب منهم الإيمان قبل حلول الموت ، فلا ينفعهم عند ذلك إيمان

لو كانوا يعلمونه . وسوف ينزل بهم نقمته في الآخرة وعذابه جزاء عدم إيمانهم وتكذيبهم . قال تعالى :

« قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) » .

وأضاف الله الأجل إليه سبحانه لأنه هو الذي أثبته وقدّره ، وأخذ سبحانه يقص الأدوار التي مر بها نوح في دعوته والطريقة التي سلكها امتثالاً لأمر الله ورغبة في هداية قومه فذكر مثابرته على الدعوة ليلاً نهاراً ، وأن ذلك لم يزد القوم إلا تباعداً عن الحق ونفوراً من الإيمان لدرجة أنه كلما دعاهم لما فيه مغفرة ذنوبهم من الإيمان وطاعة الله وضعوا أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعوا صوت الداعي وأسدلوا ثيابهم على وجوههم لكيلا يروه ثم كان منهم الإصرار والمداومة على الكفر والاستنكاف عن اتباع الحق والانقياد له وذكر سبحانه تنويع نوح في الدعوة فكما ثابر عليها ليلا ونهاراً كذلك ثابر أيضاً جهرة بين الناس رافعاً بها صوته وسراً ينفرد بكل واحد منهم ويدعوه ، واستغل ناحية حرصهم على الدنيا وطالبهم بأن يطيعوا الله فيما يأمرهم به من عبادته وحده وأن يستغفروه مما فرط منهم من عبادة غيره ففي ذلك سعادة الدنيا بأن يغفر لهم ذنوبهم السابقة فهو سبحانه كثير الغفران لذنوب التائبين المنيبين إليه من عباده ، ويرسل عليهم الغيث متواصلا ويكثر لهم الأموال والأولاد ، ويجعل لهم البساتين العظيمة تجري خلالها الأنهار . ولما لم يُجْدِ فيهم هذا الأسلوب في الدعوة خاطبهم بلهجة المستنكر وأخذ يسرد لهم الأدلة على عظمة الله وسعة قدرته مما

(إن أجل الله) وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا .

يستوجب طاعته وتوحيده قائلاً : ما بالكم لا تخافون عظمة الله تعالى وبأسه ونقمته ؟ ولا تعظمونه حق عظمته وهو الذي أوجدكم من العدم في أدوار مختلفة وحالات بعد حالات ، نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن جعلكم خلقاً سوياً . ثم ذكر لهم دليلاً آخر وهو خلق السموات وجعلها طباقاً واحدة فوق الأخرى وجعل القمر في السماء الدنيا نوراً . وإنما قال فيهن كما يقال أتيت بني تميم وإنما أتيت بعضهم وإذا كان القمر في إحداهن فهو فيهن جميعاً . وجعل الشمس مصباحاً مضيئاً ثم ذكرهم بمنة الله عليهم بخلق أبي البشر آدم وهو المراد من الإنبات المذكور في الآية التالية وكل البشر من ذرية آدم وبعد هذا الإنبات يعيدهم في الأرض بالدفن بعد الموت ثم يخرجهم من الأرض بالبعث وقت قيام الساعة وذلك من دلائل قدرته سبحانه ثم ذكر لهم نعمة أخرى من نعم الله عليهم وهي أنه جعل لهم الأرض فراشاً ممهدة وثبتها بالجبال ليسلكوا منها طرقاً واسعة .. قال تعالى :

« قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ

(فراراً) تباعداً ونفوراً عن الإيمان . (استغشوا ثيابهم) بالغوا في إظهار الكراهية للدعوة. (أصروا) تشددوا وانهمكوا في الكفر .

السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) » .

الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسعة . ولما لم يجد هـذا التنويع وتغيير أساليب الدعوة فى قوم نوح شيئاً ، توجه نوح إلى الله شاكياً صنيع قومه وعصيانهم ؛ واتباع الفقراء والسفلة منهم للأغنياء والرؤساء الذين وهبهم الله الأموال والأولاد فلم تزدهم هذه النعم إلا ضلالاً في الدنيا وخسارة في الآخرة وقد كاد هؤلاء الأغنياء والرؤساء لنوح كيداً كبيراً حيث لم يؤمنوا به بل أخذوا يصدون أتباعهم عن الاستجابة والإيمان به والميل إليه ويغرونهم بإيذائه ويحضونهم على التمسك بعبادة آلهتهم وهي ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر . أورد ابن كثير رحمه الله حديث ابن عباس عند البخاري قال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب من بعد وقد أضلت الأصنام أو أضلت الرؤساء والأغنياء بأمرهم بعبادة الأصنام خلقاً كثيراً في نهاية شكوى نبي الله نوح من

(يرسل السماء) المطر الذي في السحاب . (مدراراً) غزيراً متتابعاً . (لا ترجون لله وقاراً) لا تخافون عظمة الله . (خلقكم أطواراً) مدرجاً لكم في حالات مختلفة . (سموات طباقاً) كل سماء مقببة على الأخرى . (نوراً) منوراً لوجه الأرض في الظلام . (الشمس سراجاً) مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام . (سبلا فجاجاً) طرقاً واسعات .

قومه دعا عليهم بأن يزيدهم الله بعبادتهم للأصنام هلاكاً، وقيل خسراناً؛ وقيل عذاباً. قال تعالى :

« قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) ».

بعد ذلك أخبر سبحانه أنه انتقم منهم فأغرقهم بسبب خطاياهم وكثرة ذنوبهم وأعظمها الشرك، أغرقهم بالطوفان الذي قص الله خبره مفصلاً في سورة هود. وبعد إغراقهم أدخلهم النار ولم يكن لهم معين ولا مجير ينصرهم من عذاب الله، وكرر نوح الدعاء على قومه فطلب من الله أن يهلكهم أجمعين وأن لا يبقي منهم (دياراً) أي أحداً يدور في الأرض فيذهب ويجيء من الدوران. وقيل من الدار، أي نازلاً داراً وعلل هذا الطلب بأن الله سبحانه لو أبقى منهم أحداً لم يهلكه فإنه سوف يضل خلق الله وسوف لا يلد إلا من كان فاجراً في أعماله، كثير الكفران لربه، وإنما قال نوح ذلك لخبرته بهم ولدراسته لأحوالهم وأخلاقهم أمداً طويلاً حيث مكث بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وقيل إنما دعا بذلك حين أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن به منهم، فدعا

« خساراً » ضلالاً في الدنيا وعقاباً في الآخرة. « مكراً كباراً » بالغ الغاية في الكبر. « وداً، سُواعاً، يَغوث، يَعوق. نسراً » أصنام عبدوها ثم انتقلت إلى العرب فكان ود لكلب وسُواع لِهُذيل ويغوث لغطفان ويعوق لهمْدان ونسرٌ لآل ذي الكلاع من حِمْيَر.

عليهم كما دعا رسول الله ﷺ على عتبة وشيبة وصحابهما فقال : اللهم عليك بهم ، لعلمه بمآلهم وما كشف الله له عن أحوالهم ، وبعد أن دعا نوح على القوم الظالمين دعا الله لنفسه ولوالديه ولمن دخل داره من المؤمنين والمؤمنات ، دعا للجميع بالمغفرة وهي دعوة عامة إلى يوم القيامة ، وكرر الدعاء على الظالمين بالهلاك والخسران . قال تعالى :

« مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً (٢٨) ».

(دَيّاراً) أحد يدور ويتحرك في الأرض . (تباراً) هلاكاً ودماراً .

تفسير سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ».

أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يخبر الناس أن الله تعالى أوحى إليه باستماع نفر من الجن لقراءته وذلك عندما كان عائداً من الطائف بعد دعوة ثقيف إلى الإسلام . وكان هذا الاستماع بوادي نخلة عندما كان يصلي الصبح أو بينما كان قائماً في الليل يتهجد وقد رجع الجن إلى قومهم قائلين : إنا سمعنا قرآناً يتعجب من بلاغته وفصاحته يدعو إلى الصواب من إيمان بالله وتوحيد له ، فما لبثنا أن صدقنا به إذ علمنا أنه من عند الله ووحدنا الله تعالى فلن نجعل له بعد اليوم شريكاً – وذكرت الجن أن الله تعالى جده، أي تنزه جلاله مما نسب إليه من أن يتخذ صاحبة وولداً .

وذكرت الجن أن سفيهاً كان يقول الظلم والجور على الله وهو نسبة اتخاذ الصاحبة والولد إليه . ويعنون بسفيههم إبليس ، وقيل هو اسم جنس لكل سفيه والمراد به من لم يسلم منهم ، وتقول أيضاً : إنها لم تكن تحسب أن الإنس والجن تتمالأ على الكذب في نسبة الصاحبة والولد لله فلما سمعت القرآن

(قرآناً عجباً) كتاباً عجيباً بديعاً بليغاً . (الرشد) الحق والصواب .

وآمنت به وعلمت منه مبلغ كذب الإنس والجن وافترائهم على الله؛ وقصت الجن خبر الإنس في استعاذتهم بهم إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً ، قال ابن كثير : كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوءهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وخفارته فلما رأت الجن استعاذة الإنس بهم من خوفهم منه زادوهم رهقاً أي خوفاً وذعراً.
قال تعالى :

« وَأَنَّهُ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا (٤) ».

والشطط والاشتطاط قيل هو الغلو في الكفر ؛ وقيل الكذب وأصله البعد فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل ؛ وعن الكذب لبعده عن الصدق .

« وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ».

وذكر سبحانه أن الجن كانت تظن كما تظن الإنس أن الله تعالى لن يبعث رسولاً بعد فترة الرسل « أي قبل بعثة الرسول محمد ﷺ » وقيل المراد بالبعث بعث الموت ، أي أن الجن كانت تنكر البعث . كإنكار الإنس له ؛ ثم اهتدوا وأقروا به بعد سماع القرآن ، وعادت الآيات تواصل خبر الجن وأنهم عندما طلبوا بلوغ السماء كعادتهم قبل مبعث الرسول ﷺ وهو المراد من قولهم في الآية التالية « لمسنا السماء » وجدوها قد ملئت من سائر أرجائها بالحراس

(تعالى) ارتفع وعظم . (جدّ ربنا) جلاله أو سلطانه ، أغناه . (يقول سفيهنا) جاهلنا « إبليس اللعين » . (شططاً) قولاً مفرطاً في الضلال . (يعوذون) يستعيذون ويستجيرون . (فزادوهم رهقاً) إثماً ، أو طغياناً وسفهاً .

الأقوياء من الملائكة وبالشهب من النجوم ؛ وقد كان لهم منها مقاعد لاستراق السمع فحرموا منها ومن يحاول أن يعود إلى استراقه للسمع الآن أي بعد البعثة الشريفة يجد شهاباً مرصوداً له ، لا يتخطاه بل يهلكه ، هذه المقاعد التي كان يقعدها مسترقو السمع طردهم منها الحراس والشهب ولهذا عجبت الجن وقالت إنها لا تدري ما الذي حدث في السماء حتى منع استراق السمع ورمي من يحاوله بالشهب ، ولا تدري أيضاً هل المقصود من منع استراق السمع شراً أريد بأهل الأرض أم صلاح وخير لهم ، وقال الجن أيضاً : إن منهم صالحين وغير صالحين ، وقيل: كان منهم مؤمنون وكافرون وكانوا جماعات ومذاهب متفرقة وهو المراد من قولهم (كنا طرائق قدداً) فالطرائق المذاهب والقدد المختلفة ، يقال صار القوم قدداً إذا اختلفت حالاتهم وقال الجن أيضاً إنهم يعلمون موقنين بأنهم لا يعجزون الله تعالى لو أراد بهم أمراً ولا يعجزونه لو طلبهم مهما أمعنوا في الهرب ، وعاد الجن يذكرون أنهم عندما سمعوا القرآن من الرسول ﷺ آمنوا به وبالرسول وأنه رسول الله لأن من آمن بالله فلا يخشى نقصاً من حسناته ولا يرهق بالزيادة في سيئاته ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : البخس نقص الحسنات والرهق الزيادة في السيئات ، وذكر الجن أيضاً أنهم حتى بعد سماعهم للقرآن انقسموا إلى فريقين مسلمين مصدقين بنبوة محمد ﷺ وقاسطين (أي جائرون عادلون عن الحق) .

أما من أسلم فقد قصد طريق الحق وأما الجائر العادل عن الحق والإيمان فسوف تسعر به النار ويكون وقوداً لها جزاء إعراضه عن الهدى .

« وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَداً (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (٨) وَأَنَّا كُنَّا

(حرساً شديداً) حُرّاساً أقوياء من الملائكة . (شهباً) شعل نار تنقضّ كالكواكب . (شهاباً رصداً) راصداً ، مترقباً يرجمه .

نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَالِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) » .

ثم ذكر الله ما يفعله بهؤلاء وأمثالهم لو استقاموا .. قال تعالى :

« وَأَلَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) » .

قال البغوي في تفسير هذه الآية : لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى فكانوا مؤمنين مطيعين لأسقيناهم ماء غدقاً كثيراً ، ومعناه لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا وأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً ، وقوله تعالى : (لنفتنهم فيه) أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا .

ومن يعرض عن القرآن يدخله الله عذاباً شديداً ، والإعراض إن كان

« رشداً » خيراً وصلاحاً . « طرائق قدداً » مذاهب متفرقة مختلفة. « ظننا » علمنا وأيقنا الآن . « فلا يخاف بخساً » فلا يخشى نقصاً من ثوابه . « ولا رهقاً » غشيان ذلة له . « منا القاسطون » الجائرون عن طريق الحق . « لجهنم حطباً » للنار وقوداً . « الطريقة » الملة الحقيقية ، ملة الإسلام . « ماءً غدقاً » كثيراً واسعاً . « لنفتنهم فيه » لنختبرهم فيما أعطيناهم . « يسلكه » يدخله . « عذابا صعداً » شاقاً يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

من الكافرين فمعناه عدم القبول وعدم الإيمان به وإن كان من المؤمنين فمعناه ترك العمل به واتباعه .

ثم أخبر سبحانه أن المساجد وهي مواضع العبادة لله بمعنى أنه لا يصلح فيها الشرك وعبادة غير الله . قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها . وقيل أراد بالمساجد بقاع الأرض كلها كما صح عن النبي ﷺ أنه قال « وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » الحديث . . قال تعالى :

« وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً (١٨) » .

ثم أخذ سبحانه يصف حال الجن في استماعهم لرسول الله ﷺ في قراءته للقرآن وذلك عندما كان يصلي بوادي نخلة وأن بعضهم كان يركب بعضاً لحرصهم على الاستماع . وعبد الله المذكور في الآية التالية هو رسول الله ، ويدعوه قيل يعبده ، وقيل داعياً إلى الله . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) » .

ثم أمر الله رسوله محمداً ﷺ — أن يرد على المكذبين به من قريش الذين قالوا له إنك قد جئت بأمر عظيم ،عاديت به الناس جميعاً فارجع عنه نُجِرْك . ! أمره أن يرد عليهم بقوله إنما أعبد ربي وأستجير به وحده ولا أشرك به في عبادته أحداً وأمره أن يصارحهم بعجزه عن أن يجلب لهم خيراً أو يدفع عنهم ضراً إذ كان بشراً مثلهم ، وجلب النفع ودفع الضر بيد الله وحده ، وأمره أيضاً أن يخبرهم عن خوفه من الله وأن أحداً لا يستطيع أن يجيره منه لو عصاه أن ينقذه من عذابه لو خالف أمره ، ولن يجد عنه ملجأ يلجأ إليه وذلك عندما

(عبد الله) هو النبي صلى الله عليه وسلم . (عليه لبداً) متراكمين من ازدحامهم عليه .

طلبوا منه أن يترك الدعوة إلى الله ويخبرهم أيضاً أنه لا يملك إلا البلاغ أي تبليغ الرسالة . وقيل : لا يجيرني من الله أو يخلصني إلا إبلاغي للرسالة التي أوجب الله عليّ أداءها فإذا أبلغت رسالة ربي ولم تستجيبوا لي بل بقيتم على كفركم وشرككم فإن الله تعالى أعد لمن يعرض عن أمره ويخالف رسوله ، أعد له ناراً يعذب فيها في الآخرة لا خروج له منها . ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزالون على ما هم عليه من التكذيب والشرك إلى أن يشاهدوا العذاب عياناً فيتضح لهم صدق ما وعدوا به ويعلمون عندئذ أي الحزبين أضعف ناصراً وأقل عدداً أحزب المؤمنين الذين أخلصوا العبادة لله أم حزب المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر . قال تعالى :

« قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠) قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ ٱللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلاَّ بَلَٰغاً مِنَ ٱللهِ وَرِسَٰلَٰتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (٢٤) ».

ثم أمر سبحانه الرسول أن يعلن للكافرين أنه لا يعلم موعد قيام الساعة ولا متى يحل العذاب الذي وعد الله به المشركين والجاحدين وهل سيكون قريباً أم يجعل الله له أمداً طويلاً فعلم ذلك عند الله وهو عالم الغيب فلا يطلع أحداً على الغيب إلا رسولاً اصطفاه لرسالته فيطلعه على ما يشاء من الغيب ليكون معجزة يؤيده الله بها فيخبر عن بعض الغيب مما أطلعه الله عليه . ومن أجل ذلك فإنه يدخل بين يدي الرسول ومن خلفه رصداً ، أي حفظة من الملائكة : قيل يحفظونه من أن يقرب إليه شيطان – فيحفظ الوحي من استراق الشيطان

« لن يجيرني » لن يمنعني وينقذني . « ملتحداً » ملجأ وحرزاً أركن إليه .

والإلقاء إلى الكهنة — وقيـــل يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من تخاليطهم ووسوستهم حتى يبلغ الوحي .. قال تعالى :

« قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) » .

ثم ذكر الله أن ما سبق ذكره ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم . وقيل ليعلم الرسول محمد أن الرسل قبله قـــد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة وعلم ما عندهم فلم يخف عليه منهم شيء . قال تعالى :

« لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨) » .

قال ابن عباس : أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذر والخردل .

(أمداً) زماناً بعيداً . (رصداً) حرساً من الملائكة يحرسونه . (أحاط) علم علماً تاماً (أحصى) ضبط ضبطاً كاملا .

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
هاتف ٢٥٧٤١١-٢٩٤٢٠٤-٢٩٣٠٤٣
بيروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠

٧١/٢٠٠٠٠/٢٠٦٠